جامعة مؤتة

عمادة الدراسات العليا

كتاب "الإعتبار" لأسامة بن منقذ دراسة تحليلية"

إعداد الطالبة

براءة محمود السقرات

إشراف

الأستاذ الدكتور شفيق محمد الرّقب

رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليـــا

استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير

في الأدب قسم اللغة العربية وآدابهـــا

جامعة مؤتة، ٢٠١١

الإهداء

لملامح هويتي، من احترقا كي أضيء والدي: محبة وتقديراً.

لرواسي سبع استندتُ عليها إخوتي: عرفاناً

لمن شاركتني رحم أمي تَوءمي: وفاءً

لمن أحببت أهدي ثمرة جهدي.

براءة السقرات

الشكر والتقدير

عرفاناً مني بجميل من كان له الدور الأكبر في توجيهي وإرشادي، أتقدم بالشكر والتقدير للأستاذ الدكتور شفيق الرّقب على كل ما قدمه لي أثناء إشرافه على هذه الأطروحة، ومنحني الكثير من وقته وجهده، فكان لإشرافه الأثر البالغ لتخرج هذه الأطروحة بصورتها التي هي عليها الآن، فله جزيل الشكر والعرفان.

كما أتقدم بالشكر والتقدير لأعضاء لجنة المناقشة على تفضلهم بمناقشة الرسالة وإبداء آرائهم القيمة، التي إن دلت على شيء، فإنما تدل على جهودهم ومثابرتهم في مراجعتها مراجعة دقيقة ومتأنية لتخرج بالصورة الأمثل .

كما أتقدم بشكري وتقديري لكل من أمدني بمرجع او مصدر، أو ساعدني في الحصول عليه.

براءة السقرات

فهرس المحتويات

الملخص

كتاب "الإعتبار" لأسامة بن منقذ دراسة تحليلية"

براءة محمود السقرات

جامعة مؤتة، 2011

هدفت الدراسة الموسومة بـ"كتاب الاعتبار" لأسامة بن منقذ دراسة تحليلية" إلى بيان دوافع التأليف، واستخلاص الأزمة الذاتية والحضاريّة، ودراسة مظاهر العمران الاجتماعيّ في بلاد الشام، وتحليل العناصر الفنيّة للكتاب. وقد جاءت الدراسة بمقدمة وخمسة فصول وخاتمة.

فبينت المقدمة أهمية كتاب "الإعتبار" الذي شكل ظاهرة لافتة، لم تدرس مسبقاً دراسة تحليلية وافية في حدود علمي، إضافة إلى أنها بينت أهمية الدراسة وأهدافها والمنهج المتبع فيها الذي اتخذ منحى تكاملياً يفيد من مناهج الدراسات الاجتماعية والتاريخيّة والفنيّة السرديّة.

أما الفصل الأول فتناول دلالات العنوان ودوافع التأليف، من خلال التعريف بمفهوم السيرة الذاتية، وأنواعها، ودوافع تأليفها، ثم تناول التمهيد المكانة الأدبية لأسامة بن منقذ، وعرض لمؤلفاته.

وتناول الفصل الثاني النزعة المناقبيّة في كتاب الإعتبار، فعرض لشخصية أسامة بن منقذ وذويه، ومعتقداته، ومناقب الفرسان والاعتقاد بالكرامات ومناقب الزاهدين. أما الفصل الثالث فتناول مظاهر الحضارة والعمران الاجتماعي في كتاب الاعتبار، النزعة التربويّة في كتاب الإعتبار.

وعرض الفصل الرابع صورة الإفرنج في كتاب الإعتبار، فتناول الإفرنج في الحرب، ومنزلة الفارس عند الإفرنج، ومظاهر السلوك اليومي عند الإفرنج ،الفساد الخلقي، وتخلف الفرنجة، والعلاقات الاجتماعية بين المسلمين والإفرنج، والمسلمون في البلاد المحتلة، وتأثر الإفرنج في المسلمين.

أما الفصل الخامس فقد تناول البناء الفني لكتاب الإعتبار من حيث ،مستويات الأداء اللغويّ، السرد في كتاب الإعتبار، وتنتهي الدراسة بخاتمة تعرض أهمّ النتائج.

Abstract

The book "Aleatebar" of Osama bin mongith analytical study

Baraeh Mahmmoud Alsagrat

University of Mutah, 2011

The study aimed tagged " book Aleatebar of Osama bin mongith analytical study "the statement of the motives of authorship, and extract the crisis of self and of civilization, and to study aspects of construction of social in the Levant, and analysis of the technical elements of the book. The study with an introduction and five chapters and a conclusion .

The introduction Clarified the importance of the book "Aleatebar" which formed noticeable phenomenon that hasn't been studied pre-analytical as for as I know.

It also stated the importance of the study its objectives and the approach in study which took a comprehensive way, benefiting in the social, historical studies and the artistic narrative.

The first chapter, the study dealt with address signs and the motives of author ship, through introducing the concept of artistic biography, types, and motives of its formation, then the study discussed the literary position for Osama bin AL- mongith, and display the works of Ibn Mongith.

The second chapter dealt with the tendency in the book and display the character of Ibn AL- Mongith.

The third chapter addressed the aspects of civilization and the social construction in "Al- eatebar" book.

The fourth chapter display the franks picture in "Al- eatebar" book, he talked about the franks during the war, and the status of knight for them.

The fifth chapter dealt with the artistic construction of "Al-eatebar" book accounting, the levels of linguistic, performance and the narration in that book.

المقدمة:

يُعدُّ كتابُ الإعتبار لأسامة بن منقذ من الكتب الهامّة التي أُلّفت زمن الحروب الصليبيّة، وهو كتاب سجّل فيه المؤلّف، بعد أن تقدّمت به السنّ مذكراته وذكرياته على مدى يقارب ثمانين عاماً، كما صوّر فيه كثيراً من مظاهر العمران الاجتماعيّ في بلاد الشام زمن الحروب الصليبيّة، وألقى أضواء كاشفة على كثير من مظاهر الحياة في عصره، وصوّر أحوال بعض البلدان الشاميّة وحظّها من العمران، وازدهار الزراعة، وتكاثر الثروة الحيوانيّة، كما صوّر قوّة الروح الحربيّة، وبطولات عدد من المسلمين، وبعض الأساليب المتّبعة في تربية الناشئة، بالإضافة إلى تصوير جوانب من أخلاق الإفرنج المحتلّين وطباعهم.

وتتمثّل أهميّة هذا البحث في أنّه يتناول بالدّرس والتحليل كتاباً هامًا من كتب السيرة الذاتيّة والمذكّرات التّي أُلفت زمن الحروب الصليبيّة، ولا سيّما أنّ مؤلّفه عاش ما يزيد على تسعين عاماُ، بالإضافة إلى أنه ينتمي إلى أسرة عريقة، وأنّه بطل من أبطال الإسلام آنذاك، كما شارك في أحداث عصره بقوّة، ما أتاح له أن يكون في هذه المذكّرات شاهداً على عصره بإيجابيّاته وسلبيّاته، حيث ينقل صوراً متعدّدة منها من خلال رؤيته الذاتيّة.

وتتمثل مشكلة البحث في الإجابة عن الأسئلة التالية:

١. ما دوافع تأليف الكتاب وما دلالات عنوانه؟

٢. ما ملامح شخصيّة أسامة بن منقذ كما تمثّلت في الكتاب؟

٣. ما أنماط الشخصيّات التي تحدّث عنها أسامة في كتابه؟

ومن ثمّ فإنّ البحث يسعى إلى بيان دوافع تأليف الكتاب، ودلالات عنوانه، واستخلاص الأزمة الذاتية والحضاريّة الّتي يعبّر عنها أسامة، واستجلاء العناصر التي أثرت في شخصيّة أسامة بن منقذ وكوّنتها، ودراسة مظاهر العمران الاجتماعيّ في بلاد الشام كما تمثّلت في الكتاب، وتحليل العناصر الفنيّة لكتاب الإعتبار.

ثمّة دراسات متنوّعة تناولت فن السيرة في الأدب العربي القديم، وصورة الصلبيين وعرضت لكتاب الإعتبار، ومن هذه الدراسات:

١. إحسان عبّاس، فنّ السيرة.

٢. شفيق الرقب، دراسات اجتماعيّة في الأدب الأيّوبيّ والمملوكيّ.

٣. شوقي المعاملي، السيرة الذاتية في التراث.

٤. عبد القادر أبو شريفة، صورة الصليبيين في الأدب العربي.

٥. محمّد زغلول سلام، الأدب في العصر الفاطمي(الكتابة والكتّاب).

ولم توجد – في حدود اطّلاعي- دراسة متخصّصة تناولت كتاب الإعتبار ودرسته دراسة تحليليّة كما سيتضح من الخطّة التفصيليّة للبحث.

واقتضت طبيعة الكتاب من ناحية، وطبيعة الأهداف المرجوّة من هذه الدراسة منحى تكاملياً يفيد من مناهج الدراسات الاجتماعيّة والتاريخيّة والفنيّة السرديّة.

وتقع الدراسة في تمهيد وأربعة فصول وخاتمة، يدرس التمهيد دلالات العنوان ودوافع التأليف، ويدرس الفصل الأوّل النزعة المناقبيّة في كتاب الإعتبار. ويتناول الفصل الثاني مظاهر الحضارة والعمران الاجتماعي في كتاب الإعتبار، ويعرض الفصل الثالث صورة الإفرنج في كتاب الإعتبار، ويحلل الفصل الرابع البناء الفني لكتاب الإعتبار من حيث، مستويات الأداء اللغويّ، السرد في كتاب الإعتبار، وانتهى البحث بخاتمة تعرض أهمّ النتائج.

الفصل الأول
دلالات العنوان ودوافع التأليف

١.١ دلالات العنوان ودوافع التأليف

اهتم الباحثون في مجالات العلوم الأدبية بدراسة مختلف فروع الأدب وظواهرها منذ القدم، إلا أن البحث في مجال "السيرة الذاتيّة" جاء متأخراً بعض الشيء إذا ما قيس بالدراسات والأبحاث المتعلقة بأجناس الأدب الأخرى كالرواية والقصة والشعر وغير ذلك وفي نفس الوقت شحيحاً من حيث غزارة الإنتاج.

١.١.١ فن السيرة

أولا: مفهوم فن السيرة:

يتمتع فن السيرة الذاتّية بمرونة كبيرة وترابط وثيق مع فروع الأدب الأخرى، ولهذا السبب فقد تعددت التعريفات والمفاهيم المتعلقة به، والتي لابد من استعراضها وإن كان ذلك بشكل موجز.

ويعرف عبد العزيز شرف فن السيرة بالقول: "السيرة الذاتية تعني حرفياً ترجمة حياة الإنسان كما يراها"[١] بينما يُعرِّف يحيى عبد الدايم السيرة الذاتّية "هي التي يصوغها صاحبها في صورة مترابطة، على أساس من الوحدة والاتساق في البناء والروح، وفي أسلوب أدبي قادر على أن ينقل إلينا محتوى وافياً كاملاً، عن تاريخه الشخصي، على انه موجز، حافل بالتجارب والخبرات المنوعة الخصبة، وهو الأسلوب الذي يقوم على جمال العرض، وحسن التقسيم وعذوبة العبارة، وحلاوة النص الأدبي، وبث الحياة والحركة في تصوير الوقائع والشخصيات ،فيما يتمثله من حوار مستعينا بعناصر ضئيلة من الخيال لربط أجزاء عمله"[٢].

---

(١) عبدالعزيز، شرف، أدب السيرة الذاتية، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، ١٩٩٢، ص٢٧

(٢) يحيى، عبدالدايم، الترجمة الذاتية في الأدب الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٧٤، ص١٠.

أمَّا علي شلق فيرى أن "السيرة الذاتيّة" نوع من الأدب الحميم الذي هو اشد التصاقاً بالإنسان من أي تجربة أخرى يعانيها"(١).

وكان فيليب لوجون الأكثر وضوحاً ودقة في تعريف مفهوم "السيرة الذاتيّة" فيقول عنها: "هي حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص وذلك عندما يركز على حياته الفردية أوعلى تاريخ شخصيته بصفه خاصة"(٢).

وبتعريفه هذا حدد فيليب لوجين أربع سمات للسيرة الذاتيّة هي:

أ. شكل اللغة: حكي ونثر.

ب. موضوع معاني البحث: حياة فردية وتاريخ شخصية معينة.

ج. موقع المؤلف: المتحدث أو الراوي هو الشخصية الرئيسية.

د. الزمان: لابد أن يكون استعادياً.

وبما أن السيرة في مفهومها العام فن أدبي يستعرض فيه الكاتب حياته أو حياة شخص آخر مبرزاً في ذلك المنجزات التي تم تحقيقها في حياته أو حياة المتحدث، يرى جبور عبد النور أن "السيرة" من ناحية المفهوم الأدبي: هي نوع من الأدب يجمع بين تحري التاريخي والاتباع القصصي، ويراد به دراسة حياة فرد معين ورسم صورة دقيقة له(٣).

أما الموسوعة الأمريكية فقد ذهبت إلى أن "كارلايل" وضع أوجز تعريف للسيرة بقوله: "إنّ السيرة حياة الإنسان"(٤). وعلى هذا الأساس يرى عبد العزيز شرف أن السيرة "غرض أدبي عريق في حضارتنا العربية والإسلامية، ولأنه لم يتبلور تصوره الذهني بما يتيح له الانفراد بمصطلح نقدي مخصوص، فانه قد صيغ على نماذج تكاد تصل به إلى منزلة الاكتمال في المضمون والغرض والأسلوب"(٥).

---

(١) شلق، علي، النثر العربي في نماذجه المنظور العصري النهضة والحديث، دار العلم، بيروت، ١٩٧٤، ص٣٢٤.

(٢) فيليب، لوجون، السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة: عمر حلمي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٤، ص١٠.

(٣) جبور، عبدالنور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٤، ص١٤٣

(٤) عبد العزيز، أدب السيرة الذاتية، ص٣.

(٥) المرجع نفسه، ص٣.

إنَّ المفهوم الذي قدمه فيليب لوجن هو الأكثر دقة عند تناول كتاب "الإعتبار"، السيرة الذاتية لأسامة بن منقذ، فهو لم يشترط النسق الفني في كتابة السيرة الذاتية، حتى تكون شكلاً من أشكال الفنون الأدبية ولم يشر له حتى، بعكس يحيى عبد الدايم الذي ركز على النسق الفني بقوله: "وأخص ملامح الترجمة الذاتية التي تجعلها تنتمي إلى الفنون الأدبية، أن يكون لها بناء مرسوم واضح، يستطيع كاتبها من خلاله أن يرتب الأحداث والمواقف والشخصيات التي مرت به ويصوغها صياغة أدبية محكمة"(١). وبدون ذلك لا نستطيع أن نعد السيرة الذاتية سيرة فنية، ومن الناحية التاريخية عند النظر إلى "السيرة" نجد أنها شكلاً من فنون الكتابة كانت موجودة، وتم مراعاة شروطها ومتطلباتها، لكنها لم تلق الاهتمام على نطاق واسع كما هو الحال في فروع الأدب الأخرى.

وتظهر الدراسات التاريخية أن "السير" كانت موجودة في العصور الإسلامية، وتم الاهتمام بها، خاصة تلك "السير" المرتبطة بشكل مباشر بالتاريخ، أي أن صاحب "السيرة" كان على علاقة مباشرة وكبيرة بالحياة العامة للناس ونشاطاتهم وأفعالهم. كما هو الحال بـ "سيرة" عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز –رضي الله عنهما–، فقد أصبحت سيرة كل منهما "مجموعة من المناقب والأقوال يتأدب بها المتأدبون ويستغلها الواعظون في استمالة القلوب إلى الخير"(٢). ولم يدع العرب لونا من ألوان " التاريخ والتراجم إلا عالجوه لكنهم، لم يفكروا بالمذكرات واليوميات الشخصية إلا على حال من الندرة، ولم يفكروا بالتراجم الذاتية إلا على حال من القلة القليلة التي لا تتكافأ مع هذا الفيض الزاخر من التراجم والسير"(٣).

ولا بدَّ هنا من الإشارة الى ان هناك بعض العلماء والمختصين رفضوا أن يكون للتاريخ علاقة مباشرة بالسير، فقد أنكر الاستاذ كولنجوود (Colling wood) اعتبار السيرة جزءاً من التاريخ، لأنها برأيه تفقد القاعدة الصحيحة التي يقوم التاريخ عليها(٤).

---

(١) يحيى، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص٤

(٢) عباس، إحسان، فن السيرة، دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٥٦، ص١٨ .

(٣) عبدالعزيز، أدب السيرة الذاتية، ص٤٨

(٤) عباس، فن السيرة، ص١٠

بنفس الاتجاه يذهب المؤرخ توينبي (Toynbee) الذي يخرج من دائرة التاريخ ما يتصل بالسيرة الذاتية، كاعترافات القديس اوغسطين وروسو وغيرها من كتب السير.

ويرى أن هذه الكتب تشتبك بالتاريخ، لأنها تدور حول اناس لهم قيمتهم بالحياة الاجتماعية[١]، وعلى النقيض من هذا الموقف نجد مؤرخا مشهوراً كابن خلدون يرى بأن الغاية من التاريخ هي الكشف عن القدوة الحسنة وتجنب المزالق وللاعتبار بأخطاء الماضي[٢].

وينصح ابن حزم المتعلم بقراءة التاريخ " ليقف على حمد المتقين للفضائل فيرغب فيها ويسمع ذمهم للرذائل فيكرهها"[٣]، ويقول المؤرخ ابن الجوزي في مقدمة شذوذ العقود: "إنَّ التواريخ وذكر السير راحة للقلب وجلاء للهم وتنبيه للعقل... "[٤].

على هذا الصعيد يرى إحسان عباس أنَّ "الحس التاريخي هو الأدب المنجب للسير يوم كانت السير جزءاً من التاريخ، ويوم كانت حياة الفرد تمثل جانباً هاما من تصور الناس للتاريخ وإيمانهم أن الفرد هو الذي يكيف الأحداث ويرسم الخطط ويقوم بالتفكير والتنفيذ"[٥]، ويؤكد أن هذه حقيقة تاريخية بقوله: " نستطيع أن نقرر في غير تعميم بأن السير التاريخية ظلت حتى العصر الحديث أقوى أنواع السير عند المسلمين"[٦]، ويعتمد بقوله هذا على رأي ونظرة المؤرخين المسلمين، فيقول:" إنّ المؤرخين المسلمين كانوا يرون السيرة جزءا من التاريخ، بل يرون أن التاريخ ليس إلا سير الحاكمين"[٧].

---

(١) عباس، فن السيرة، ص١٠

(٢) المرجع نفسه، ص١٣

(٣) المرجع نفسه، ص١٣

(٤) المرجع نفسه، ص١٣

(٥) المرجع نفسه، ص١٠

(٦) المرجع نفسه، ص٢٧

(٧) المرجع نفسه، ص٢٧

وعلى هذا نجد أن السير التاريخية ذات العلاقة المباشرة بالحكام والقادة ورجال السياسة مميزة عن مثيلاتها من السير التي تدور حول العلماء والأدباء، وذلك بسبب اهتمام الأولى وعنايتها بالأحداث الخارجية المتصلة به[١].

ثانيا: أنواع السيرة:

يرى الدارسون أن للسيرة شكلين رئيسيين هما:

١- السيرة الغيرية: وهي تعني البحث عن الحقيقة في حياة إنسان منذ ولادته والكشف عن ماهية وأسرار عبقريته من ظروف حياته التي عاشها والأحداث التي واجهها في محيطه والأثر الذي خلفه في جيله[٢].

٢- السيرة الذاتية: وهي ان يقوم الإنسان بكتابة تجربته الحياتية والتاريخية بنفسه دون الاعتماد على احد والسيرة الذاتية مرآة لصاحبها فهي تحكي جوانب حية من تجاربه وترتبط بها عواطف نفسية ومشاعر عاطفية وتعطي صورا واقعية من الحياة صحيح أنها تدور حول أفراد يبدون وكأنهم يكيفون الأحداث ويرسمون الخطط ويقومون بالتفكير والتنفيذ ويتحاشون الخطأ والعيوب لكن تظل لهذه التجارب الفردية الحية قيمتها لأنها تشتبك بالتاريخ وتشكل جزءا فيه وتضفي الحياة عليه[٣].

السيرة الذاتية تبدأ حينما يكون بمقدور كاتبها قطع صلته إلى حين بالبيئة الخارجية لكي يجمع شتات نفسه أو يتملك زمامها[٤]. من هنا يتضح أن " السيرة الذاتية" تعتمد أساسا على العنصر الذاتي الداخلي للإنسان نفسه دون أية مؤثرات خارجية على كاتبها – صاحبها وهو "من يبصر الحقائق المتعلقة بذاته على نحو ذاتي"[٥]. وهو من يحدد درجة الصدق وتناول الحقائق والتجارب التي يتم سردها،

---

(١) المرجع نفسه، ص٢٩

(٢) عبد العزيز، أدب السيرة الذاتية، ص٣.

(٣) عباس، فن السيرة،، ص٧

(٤) عبد العزيز، أدب السيرة الذاتية، ص٧.

(٥) عباس، فن السيرة، ص١٠١

وترتيبها زمانيا ومكانيا، وتناولها بموضوعية متناهية بعيدا عن أية تأثيرات ذاتية حتى لو كانت ضده.

هذا التجرد التام من الذات قلائل من يتقنونه حسب رأي إحسان عباس، حيث يقول: "يتجرد من التحيز لنفسه، وهو يذكر موقفه من الناس والحوادث، ولا ينساق مع غرور النفس وتعلقها بذاتها، وحبها لإعلاء شأنها، وتنقصها من أقدار الآخرين، وقلَّ من يحسن هذا النوع من التجرد"[1] في المقابل فإن السيرة الغيرية تعتمد على العنصر الموضوعي بشكل أساسي، أي العوامل الخارجية. ومن الناحية التاريخية، فقد ظهرت في الأدب قبل السيرة الذاتية بزمن بحكم أنها تأريخ للملوك والقادة من قبل أشخاص يعملون في بلاط هؤلاء الملوك والقادة لهذه الغاية. وفيما يتعلق بالفروقات بين هذين النوعين من " السير" فهناك وجهتا نظر مختلفتان بشكل واضح، " رغم اتفاقهما في كثير من المظاهر والعناصر"[2] وجهة النظر الأولى ترى أن لا فرق بين السيرة الذاتية والسيرة الغيرية من حيث الغاية والشكل والمضمون، فاحداهما تكتب بصيغة المتكلم والأخرى بصيغة الغائب وكلاهما فن وليس علم.

وترى وجهة النظر الأخرى أن بينهما ما هو مشترك مثلهما مثل باقي الصنوف الأدبية ولكنهما ليستا متطابقتين. وذكر إحسان عباس أن الفرق بينهما هو على النحو التالي:

١. "أن السيرة الذاتية هي نقل مباشر من الإنسان المعني بالموضوع. أما السيرة الغيرية – أي ترجمة أو كتابة سيرة للآخرين – فهي نقل عن طريق الشواهد والوثائق، وهذا بحد ذاته يمثل فرقا كبيراً جداً.
٢. أن الصفات التي تجعل السيرة الذاتية عظيمة ليست هي نفسها الصفات التي تجعل السيرة الغيرية عظيمة، فكاتب السيرة الغيرية يجب أن يكون موضوعياً يلمح بسرعة ويفهم بأحكام ويلم بالحقائق ويحكم عليها ويمزجها مزجاً متعادلاً

---

(١) المرجع نفسه، ص١٠٢

(٢) عباس، فن السيرة، ص١٠٤

منسجماً وبصيغها بأسلوبه. أما كاتب السيرة الذاتية فانه ذاتي قبل كل شيء، ينظر إلى نفسه ويسلط أضواء النقد ودقة الملاحظة على شخصيته.

٣. أن كاتب السيرة الغيرية يقف موقف الشاهد، أما كاتب السيرة الذاتية فانه يقف موقف الشاهد والقاضي في آن واحد.

٤. كاتب السيرة الغيرية لا يحمل فكرة مقررة من قبل عمن يكتب عنه، وإنما عليه أن ينقل صورته إلى الخلف كما كانت معروفة بين معاصريه. أما كاتب السيرة الذاتية فلا يوجد عليه مثل هذا القيد، فهو يكتب عن نفسه، فما يقوله يقبل على وجهه.

٥. نتيجة لكل ذلك فان السيرة الذاتية تنبع من الداخل وتتجه إلى الخارج، أما السيرة الغيرية فهي بالعكس فأنها تأتي من الخارج لذلك فان أن نجاح كاتب السيرة الذاتية يقاس بنسبة الذاتية فيما كتب، أما نجاح كاتب السيرة الغيرية فيقاس بمقدار تجرده وغيريته"[١].

ثالثا: دوافع كتابة أسامة لسيرته الذاتية:

ثمة دوافع متعددة وراء كتابة "السيرة الذاتية "وترتبط هذه الدوافع بطبيعة الشخصية ومزاجها العام ومكانتها الاجتماعية وثقافتها وتجربتها الخاصة في الحياة ومن أبرز هذه الدوافع[٢]:

١. الاعتراف بالذنب فتأتي كتابة السيرة لتخفيف من هذا الشعور الذي يثقل كاهل كاتبها، وهذا النمط من السيرة لا نجده في الأدب العربي القديم، ولكن نجد مثل هذا في الآداب الأجنبية القديمة مثل اعترافات القديس اوغسطين حوالي عام (١٣٩٩م) وسيرته هي المثال النموذجي لمثل هذا النوع.

٢. الرد غير المباشر على آراء جدلية تعرض لها المؤلف في حياته أو موقف اتجاه قضايا تخص الوجود والمجتمع والسياسة. فيمكن أن يتم كتابة السيرة الذاتية من

---

(١) عباس، فن السيرة، ص١-٣

(٢) عبد العزيز، أدب السيرة الذاتية، ص٤٥

قبيل الدفاع الذي يحاول فيه الكاتب أن يصرح بمسار حياته ويبرره، أو يبرر عملاً خاصاً قام به من أجلها".

٣. الشعور بالمتعة الفنية بكتابة السيرة الذاتية، إذ إنّ الكاتب يستحضر أمامه جميع الذكريات السعيدة التي عاشها، وكذلك الذكريات المرة والقاسية التي عانى منها، لحظات الانتصار والنجاح والأخرى التي واجه بها الفشل أو الهزيمة. فالمؤلف يعيش هنا لحظتين – الحياة الماضية من موقع الحاضر الذي يعيشه.

٤. رغبة المؤلف في كتابة فصول حياته المختلفة كما عاشها وكما يراها وكما يفهمها هو وليس الآخرين. فهو بذلك ينقل تجربته كما عاشها من كافة جوانبها للآخرين للاستفادة منها لانه يرى هذه السيرة دليلاً مرشداً قيماً للأخلاق والعادات السائدة.

ومن الدوافع الهامة لكتابة "السير" هو الميل إلى الإمتاع وإثارة الدهشة والتحبب بالفكاهة[١]. وقد كان لهذا الأثر الكبير في ظهور "السير" الخيالية أو الغنية بالخيال، وأصبحت نوعا من القصص البطولية مثل سيرة عنترة، والمهلهل، وأبي زيد، وسيف بن ذي يزن .. وما شابهها.

رابعا: أشكال السيرة الذاتية:

ويمكن تصنيف السيرة الذاتية حسب دوافع كتابتها والغاية منها على النحو التالي:

أ. الصنف الإخباري المحض: ويضم هذا الصنف الحكايات ذات العنصر الشخصي، سواء كانت تسجل تجربة أم خبراً أم مشاهدة، والشيء المهم لكل واحد من أصحاب هذه السير أن يعرف الناس أين نشأ، وكيف تعلم، وكيف كانت قابليته للتعلم ومن شيوخه وما هي الكتب التي ألفها والبلاد التي زارها متنقلاً. كما هو الحال في سيرة ابن سينا وابن رضوان وغيرهما[٢].

ب. الصنف التبريري: وهو ما يكتب لغاية التفسير والتحليل والاعتذار والتبرير، فكل واحد من أصحاب هذه السير كانت تكتنفه ظروف مضطربة فيها مجال للأخذ والرد والقيل والقال فكتبوا سيرهم لينصفوا أنفسهم أمام التاريخ وليبرروا ما جرى لهم من زاوية ذاتية،

---

(١) عباس، فن السيرة، ص٢

(٢) المرجع نفسه، ص١١٤

وينطبق هذا على سيرة ابن خلدون وابن حزم الأندلسي على سبيل المثال وليس الحصر [١].

ج. الصنف الثالث: الذي يبرز الصراع الروحي الداخلي عند الكاتب كما هو الحال بسيرة الغزالي وابن الهيثم[٢].

د. الصنف الرابع: الذي يتناول المغامرات في الحياة وما يواجهه الشخص من تجارب متنوعة واقرب النماذج لهذا الصنف السيرة الذاتية لأسامة بن منقذ في كتابه "الإعتبار"[٣].

٢.١ المكانة الأدبية لأسامة بن منقذ:

هو أسامة بن مرشد بن علي بن المقلّد الكناني الملقب بمؤيد الدولة ولد سنة (٤٨٨هـ)[٤] في شيزر، وهي بلدة ذات قلعة حصينة تقع على نهر العاصي إلى الشمال الغربي من مدينة حماة[٥].

نشأ أسامة بن منقذ في بيت إمارة يتسم بالفروسية والشجاعة، وتحمل المصاعب والمشاق، ونال تعليمه على هذا الأساس في بداية حياته كأحد أفراد عائلة عربية عريقة مرموقة، فتلقى تعليمه على أيدي فقهاء وأدباء ومؤرخين فدرس الفقه والحديث والأدب وحفظ كثيراً من الشعر القديم وقصص الأدب والتاريخ فقد ذكره الأصفهاني بقوله: "أن أسامة كاسمه في قوة نظمه ونثره، يلوح من كلامه إمارة الإمارة، يؤسس بيت قريضة عمارة العمارة، نُشر له علم العلم، ورقي سُلَّمّ السَّلم، ولزم طريق السلامة، وتنكب سُبُل الملامة، واشتغل بنفسه، ومحاورة أبناء جنسه، حلو المساجلة، حالي المساجلة، نديّ

---

(١) المرجع نفسه، ص١٨

(٢) المرجع نفسه، ص١٢٦

(٣) المرجع نفسه، ص١٢

(٤) الحموي، ياقوت شهاب الدين بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي، (ت ٦٢٦هـ)، معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٩٥، ج٢، ص٣٠٣

(٥) الأصفهاني، عماد الدين بن عبد الله بن محمد الكاتب(ت ٥٩٧هـ)، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ط١، تحقيق: شكري فيصل، المطبعة الهاشمية، نشره مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٦٨، ج١، ص٤٩٨.

النَّـديَّ بمـاء الفكاهـة، عـالي الـنجم فـي سـماء النباهـة، معتـدل التصـاريف، مطبـوع التصانيف"[١].

ونقل ابن العديم عن السمعاني قولـه:" أمير فاضل غزير الفضل وافر العقل حسن التدبير مليح التصانيف عارف باللغة والأدب مجود في صنعة الشعر من بيت الإمارة والفروسية واللغة"[٢].

وكما أثنى المقريزي بقوله: "أسامة من أكابر بني المنقذ ،وعلمائهم وشجعانهم، وله تصانيف عديدة في الفنون الأدب[٣].

ومما يؤكد على شغف ابن منقذ بالعلم ما أبداه من حزن وأسف على خسرانه عدداً من الكتب عندما وقعت أسرته في أيدي الإفرنج "فهون علي سلامة أولادي وأولاد أخي، وحرمنا ذهاب ما ذهب لي من الكتب فإنها كانت أربعة الآف مجلد من الكتب الفاخرة فان ذهابها حزازة في قلبي ما عشت"[٤]وقد ترك أسامة بن منقذ عدداً كبيراً من المؤلفات بعضها وصل إلينا وبعضها لم يصل ومن هذه المؤلفات:

١.٢.١ مؤلفات ابن المنقذ

١- الإعتبار [٥].

---

(١) المرجع نفسه، ج١، ص٤٩٨

(٢) ابن العديم، كمال الدين بن أحمد بن هبة الله، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل الزكار، ط١، دار الفكر، بيروت لبنان، ١٩٩٨م، ج٣، ص١٣٦٠

(٣) المقريزي، أحمد بن علي، (ت ٨٤٥هـ)، كتاب المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩١م، ج٢، ص٤٩.

(٤) ابن منقذ، أسامة أبو مظفر بن مرشد، (ت ٥٤٨هـ ١١٨٨م)، كتاب الإعتبار، تحقيق وتقديم: قاسم السامرائي، دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، عمان، الأردن، ١٩٨٧، ص٤٥

(٥)حققه لأول مرة المؤرخ هرتويك ديرنبورج أو ديرنبرج، ونشره في لندن سنة ١٨٨٦م أثناء عمله في تكملة فهرس العزيزي للمخطوطات العربية في الأسكوريال، حيث عثر على قطع وأوراق متفرقة في ثنايا مخطوطات أخرى ولم يفطن لها أحد، فلما درسها أدرك أنها كتاب الإعتبار الضائع، فتتبع سائر المخطوطات وجمع ما تفرق من أجزاء الكتاب وضمها إلى بعض ونشرها، كما قام بتحقيقه فيليب حتي، وصدر عمله في "برنستون "بالولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٣٠م، ثم طبع الكتاب بتحقيق فيليب مرة أخرى في بيروت في عام ١٩٣١م، ثم حققه قاسم السامرائي، وصدر عمله عن دار الأصالة في الرياض بالمملكة العربية السعودية عام ١٩٨٧م، ثم قام عبد الكريم الأشتر، وصدر عمله عن المكتب الإسلامي في القاهرة بطبعتين كانت الأخيرة منها عام ٢٠٠٣م. وأخيراً قام قاسم السامرائي باعادت تحقيقه ونشره عام ٢٠٠٩م، وصدر عمله عن وزارة الثقافة في الأردن،عمان.

٢- كتاب العصا[١].

٣- كتاب المنازل والديار[٢].

٤- البديع في نقد الشعر[٣].

٥- أزهار الأنهار[٤].

٦- النوم والأحلام؛ فيه آراء في النوم والأحلام، وما قيل فيها عن أوقات الرؤيا[٥].

٧-الأقسام: في الشعر[٦].

٨-أخبار النساء[٧].

٩-أخبار البلدان[٨].

١٠-ذيل يتيمة الدهر للثعالبي[٩].

١١- التاريخ البدري؛ جمع فيه أسماء من شهد بدراً من الفريقين[١٠].

١٢- التأسي والتسلي؛ عن الصبر، وما ورد عنه في الكتاب العزيز، وأقوال الحكماء وبعض المراثي[١١].

١٣- كتاب القلاع والحصون[١٢].

١٤- نزهة الناظر في إملاء الخاطر[١].

---

(١) المقريزي، كتاب المقفى الكبير، ج٢، ص٤٨، وقد أورد فيه شواهد نثرية وشعرية وهو مطبوع وقد نشره حسن عباس، عبد السلام هارون المجمع الثقافي، ١٩٩٩/١/١.

(٢) المرجع نفسه، ج٢، ص٤٨، نشره مصطفى حجازي عام ١٩٩٢، ذكر فيه المنازل والديار والأطلال والربع والدمن والآثار والرسم وغيرها.

(٣) ابن منقذ، أسامة، الديوان، تحقيق: أحمد احمد بدوي وحامد عبد الحميد، منشورات بعلبكي، بيروت، ط٢، ١٩٨٣، ص١٢، نشره أحمد بدوي، وحامد عبد المجيد عام ١٩٦٠، وجمع فيه ما تفرق في كتب العلماء المتقدمين المصنفّة في نقد الشعر.

(٤) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، المقدمة، ع.

(٥) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، المقدمة، ص١٨٦

(٦) المقريزي، كتاب المقفى الكبير، ج٢، ص٤٩

(٧) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ك

(٨) ابن منقذ، لباب الأداب، المقدمة، ص٢٦

(٩) المقريزي، كتاب المقفى الكبير، ج٢، ص٤٨

(١٠) المرجع نفسه، ج٢، ص٤٨

(١١) المرجع نفسه، ج٢، ص٤٨

(١٢) المرجع نفسه، ج٢، ص٤٨

١٥- الشيب والشباب؛ ذكر فيه الشيب والكبر والمشيب[٢].

١٦- فضائل الخلفاء الراشدين[٣].

١٧- مكارم الأخلاق[٤].

١٨- نزهة الناظر في إملاء الخاطر[٥].

١٩- المنتخب من أشعار العرب[٦] .

٢٠- نصيحة الرعاة[٧].

٢١- بديع الاسما في ماهية الحمى[٨].

٢٢- بديع الأحوال[٩].

٢٣- زجر عمرو بن بحر الجاحظ[١٠].

٢٤- المدن والحصون[١١].

٢٥- معونة المساعد على حصر الشواهد[١٢].

٢٦- رعاية الذمم[١٣].

٢٧- المحاسن[١٤].

٢٨- معونة المساعد على حصر الشواهد[١٥].

---

(١) المرجع نفسه، ج٢، ص٤٨

(٢) المرجع نفسه، ج٢، ص٤٨

(٣) المرجع نفسه، ج٢، ص٤٨

(٤) المرجع نفسه، ج٢، ص٤٨،

(٥) المرجع نفسه، ج٢، ص٤٩

(٦) المرجع نفسه،ج٢، ص٤٨

(٧) المرجع نفسه، ج٢، ص٤٩

(٨) المقريزي، كتاب المقفى الكبير، ج٢، ص٤٩

(٩) حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله القسطنطيني، كشف الظنون في اسامي الكتب والفنون، (ت ١٠٦٧هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، ج١، ص٢٣٤

(١٠) المقريزي، كتاب المقفى الكبير، ج٢، ص٤٨

(١١) المرجع نفسه، ج٢، ص٤٨

(١٢) المرجع نفسه، ج٢، ص٤٨

(١٣) المرجع نفسه، ج٢، ص٤٨

(١٤) المرجع نفسه، ج٢، ص٤٩

(١٥) المرجع نفسه، ج٢، ص٥٠

٢٩- درء الظالم ورد المظالم[١].
٣٠- رسائل السائل[٢].

٣.١ دلالات العنوان ودوافع التأليف:

يرى الأدباء أن فن السيرة ناشئ عن تفاعل الذات مع محيطها من مؤثرات خارجية وداخلية فقد ذكر إحسان عباس ذلك بقوله" تكمن القيمة الحقيقية في السيرة في الصراع، وفي مدى القوة التي تمنحها للقراء وهي تقدم لهم مثالاً حياً عن أنفسهم"[٣] وذكر أيضاً "أن حظ السيرة الذاتية من البقاء، منوط بحظ صاحبها نفسه من عمق الصراع الداخلي أو شدة الصراع الخارجي"[٤] ثم يضيف الدكتور يحيى عبد الدايم "وينتج عن قوة الإحساس بالصراع في نفوسُ كتاب الترجمة الذاتية، أن تغلب عليهم روح الثورة والتمرد كما ينتج عن إحساسهم بالصراع: إحساس بالقلق والحيرة والغربة في البيئة المحيطة وعدم الانتماء إليها"[٥].

وعلى هذا الأساس أطلق عليه جبرا فن الأزمة ،"نظراً لطبيعته القائمة على توتر ناتج عن صراع الذات مع العالم الخارجي"[٦] أي أن لحظات التوتر الناشئة عن تفاعل الذات مع المؤثرات الخارجية والداخلية هي في كثير من الأحيان وراء كتابة السيرة الذاتية.

وعند البحث في الأسباب التّي دفعت أسامة بن منقذ إلى تسطير سيرته الذاتيّة لابّد من أن نضع كتاب الإعتبار في سياقه الحضاريّ العام من ناحية، وأن نربط بمجريات حياة أسامة بن منقذ من ناحية ثانية، آخذين بعين الإعتبار الدوافع العامّة

---

(١) المرجع نفسه، ج٢، ص٥٠، وقد ذكره باسم (ردع الظالم ورد المظالم)
(٢)المرجع نفسه، ج٢، ص٥٠
(٣) عباس، فن السيرة، ص٩٧
(٤) المرجع نفسه، ص١٠٦
(٥) يحيى، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص١٥٠
(٦) الشيخ، خليل، سيرة جبرا إبراهيم جبرا، البئر الأولى وتجلياتها في أعماله الروائية القلق وتمجيد الحياة، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ط١، ١٩٨٧، ص٧٣

التي أشير إليها أنفاً بكتابة السيرة الذاتية. والسؤال الذي نطرحه هنا هل عبّر كتاب (الإعتبار) عن أزمة عانى منها الكاتب؟

إن السياق التاريخي العام لأحوال المسلمين في ديار الشام في القرن السادس الهجريّ الذي عاش فيه أسامة يدلّ على أن الأمّة كانت في مواجهة حضارية شاملة مع الإفرنج الّذين غزوا الإسلام في عقر داره، فقد ولد أسامة سنة (٤٨٨ هـ) والأمة الإسلامية في بلاد الشام على وشك أن تواجه الحملة الصليبية الأولى، ونشأ وهو يشاهد بأم عينه آثار الغزو الصليبي في البلدان التي استولى عليها الغزاة، بل كان هو نفسه يعاني من ويلات هذه الحروب وشبَّ وقد بلغت الحروب الصليبية ذروتها وكانت أحداثها تسير بين مد وجزر، وأقام صلات مع الإفرنج، وزارهم في البلاد المحتلة وشاهد عاداتهم وأخلاقهم وأنماط سلوكهم التي تغاير ما لدى المسلمين، ويبلغ أسامة سنَّ الشيخوخة والعدو الصليبي ما يزال جاثماً على صدر الأمة الإسلاميّة، صحيح أنّ صلاح الدين أحرز بعض الانتصارات، إلا أن قسما كبيراً من الإنجازات التي حققها كاد المسلمون يخسرونه بعد وفاته. ولا ريب أنَّ هذا الغزو كان يشكل تحدياً صارخاً للأمة ولأسامة كذلك، باعتباره أحد قادتها ومفكريها وأدبائها، ولا ريب إذن أن رأيناه في كتابه الإعتبار يقف عند صورة هؤلاء الغزاة، وينقل كثيراً من سلوكهم السلبيّ، وكأنهم بهذا السلوك يمثل خطراً حضارياً داهماً على المسلمين في عقيدتهم وفكرهم وأخلاقهم ومن ثَمَّ وجدناه يعلق على الإفرنج بعد إن أورد كثيراً من أوصافهم قائلا:"وهم جنس ملعون لا يألفون لغير جنسهم"[١].

وفي هذا الإطار يمكن أن نفهم اهتمام أسامة بالحديث عن أخبار بعض المعارك والحروب بين المسلمين والإفرنج وإن جاء ذلك في صورة غير منتظمة، وأستشهد بشعر أسامة في الحديث عن كتاب الإعتبار فيلاحظ أنَّ إحساساً عامَّاً بالقلق يسيطر على شعره وهو نابع مما كان يلاحظه من أوجه النقص في العلاقات الاجتماعية، وإحساسه بالتوتر الحادّ بين ما هو كائن و ما ينبغي أن يكون، كقوله يعبر عن عدم ثقته بالنّاس، والانسحاب من المشاركة في الحياة:

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٦٧

من مبلـغ المعترّ و القانـع   وابن السبيل النَّازح النّـازع
إن الندى قد مات، فاستعصموا   باليأس، من دانٍ، ومن شاسـع
لا ترجون خلقاً فكلّ الـورى   يقبض كفّ المانـع الجامـع(١)

وقوله :

فاقطع حبالك من كلّ الأنـام فهم   في كل حالات من دانوا حبالات
واحذر من الناس، إني قد خبرتهم   ولا يغرنك حبٌّ فيه إخبـات
وكلّهم، وهم الأحياء، إن بعثـوا   على حياة وفعل الخير أموات
وقد سمعنا بأن الأرض كان بها   ناس كرامٌ، ولكن قيل قد ماتوا(٢)

إنّ المحن والأزمات التي توالت على بلاد الشام زمن الحروب الصليبية قد شحذت هذا الإحساس بانقلاب القيم، وتهزّع الأخلاق، وفقدان الأخ والصديق، وتفشي الفساد وانعدام الأمل في الإصلاح لذا فإن شعراء الشام عامة يعّبرون عن هذه المشاعر السلبية كما يقول أبو المجد المعري يشكو من تردّي الأوضـاع في بلاد الشام:

زمان غاض أهل الفضل فيه   فسقيا للحمام به ورعيـا
أسارى بين أتراك وروم   وفقد أحبة ورفاق شعيـا(٣)

ونجد الحافظ الدمشقي يتأمل أخلاق الناس في عصره ويقول:

قلَّ الحفاظ فذو العاهات محترم   والشّهم ذو الرّأي يؤذى مع سلامته
كالقوس يحفظ عمداً وهو ذو عوجٍ   وينبذ السّهم قصداً لاستقامتـه(٤)

وتحـدث أبـو الفوارس المظفـر بـن عمـر بحـزن وأسـف عـن تـردي القيم بعصـره فيقول:

وددتُ بأن الدّهر ينظر نظرة   بعين جلا عنها الغيَابة نُورهـا
إلى هذه الدّنيا التي قد تخبطت   وجنّت فساس النّاس فيها حميُرها(٥)

---

(١) ابن منقذ، الديوان، ص٢٨٤
(٢) المقريزي، كتاب المقفى الكبير، ج٢، ص٢٧٦
(٣) الاصفاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص١٢
(٤) الحافظ أبو محمد عبد الخالق بن أسد بن ثابت الدمشقي، مدرّس الصادرّية توفي سنة ٥٦٤هـ، انظر: المرجع نفسه، ج١، ص٢٨٢
(٥) أبو الفوارس المظفر بن سلمان بن السحمان من أهل آمد. انظر: المرجع نفسه، ج١، ص٢٨٢

وإذا ما انتقلنا إلى حياة أسامة بن منقذ والظروف التي كتب سيرته الذاتية فيها نجد أنه كان يعاني إحساساً عميقا بالوحدة والغربة، والتذمر والعزلة وانعدام المغزى في الواقع والإحباط وما يرافق ذلك من مظاهر الأرق والاكتئاب والقلق والشعور بالوحدة والضياع، ومن خلال تتبع حياة أسامة بن منقذ نجده قد عانى ويلات الغربة وليست أي غربة بل الغربة القهرية التي فرضت عليه من عمه، وفي هذا أورد ابن العديم: "فقام عمي نصف الليل وطلبني وأمر من أسرج لي مركوباً، وأمرني بالركوب، وقال: أريد أن تجيء معي إلى موضع سماه خارج شيزر في شغل، فركبت معه حتى أبعدني عن شيزر، ثم قال لي: يا ابن أخي، شيزر لك فهبها لي، فوالله ما بقيت أقدر على مساكنتك، ولم يأخذني في هذه الليلة نوم من شدة فكري فيك"[١].

ويصف حسن عباس خروج أسامة بن منقذ فيقول "خرج أسامة من شيزر منفياً طريداً سنة (٥٣٥هـ)[٢].

وجسد أسامة شعوره بالغربة المادية عن وطنه الشام في كل صور الفراق؛ فراق الوطن بمعاهده وربوعه، وفراق أيام الصبا وذكرياتها الحلوة وفراق العهد الجميل الذي قضاه بين أخوان الصفاء، وفراق الحبيبة التي تتهالك نفسه شوقاً إليها، واّتشح هذا الشعر بغلالة من الأسى الذي يشفّ عن وجله من الفراق، وتضعضع قواه النفسية بسبب الغربة حتى بدت هذه الغربة وما يصاحبها من تنقل مستمر تهديداً للبنيان النفسي لديه.

وقد تعددت المعاني التي عبّر من خلالها عن تجربة الغربة، من ذلك حديثه عن روعات النوى التي سلبته الإحساس بجمال الحياة، ونزعت من قلبه السعادة والسرور، فعاش إنسانا مسكوناً بهم الغربة مشحوناً بانفعالات الحزن والأسى[٣]:

أينَ الُّسرورُ من المُروَّعِ بالنَّوى — أبداً، فَلا وَطنٌ، ولا خُلاَّنُ
عِيدُ البَريَّةِ مَوسِمٌ لِعَويلِه — وسرورهم فيه له أحزان

---

(١) ابن العديم، الطلب في تاريخ حلب، ج٣، ص١٣٦٤

(٢) عباس، حسن، أسامة بن منقذ حياته وشعره، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨٠م، ج١، ص٩١

(٣) الرقب، شفيق، شعراء شاميون في العصر الأيوبي، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠٠٩، ص٩٠

وإذَا رأى الشَّملَ الجميعَ تزاحمتْ   في قلبه الأمواه والنيران(١)

وقد عَّمق هذا الإحساس بالغربة في نفسه فقدانه كثيراً من ذويه وهو بعيد عنهم، فقد تعددت مظاهر الفقد في حياة أسامة بن منقذ فقد تشعبت يدا الموت في النيل من كل من يحتل مكانة بقلبه، فقد نال من أهله ليشبعه الماً وحسرة،حيث فقدهم بالزلزال الذي ضرب شيزر (٥٣٣هـ)، وفي ذلك قوله:

لم يترك الدهرُ لي من بعدِ فقدِهمُ   قلباً أُجشِّمُه صبراً وسُلوانَا
فلو رأوني لقالوا: مات أسعدنا   وعاشَ للهمِّ والأحزانِ أشقانَا
لم يترك الموتُ منهم من يُخبرِّني   عنهم فيوضح ما لاقوه تبيانا
فلو رأوني لقالوا مات أسعدنا   وعاش للهّم والأحزان أشقانا(٢)

ويورد أيضاً:

ويح الزلازل أفنت معشري فإذا   ذكرتُهم، خِلتُنِي في القوم سَكرانَا(٣)

ثم يفجعه الزمان، فلذة كبده ولده أبو بكر، فيرثيه بقصائد خص باباً لها في ديوانه توحي بعمق الحزن والأسف بفقد الأب لابنه:

لعمرك ما ينسيني الدهر روعتي   بِفَقد أبي بكرٍ حَياتي، ولا يُسلِي
خَشيتُ عليه اليُتم بعدي، فَليتَنِي   رُميتُ بما أَخْشَى، ولم أُرْمَ بالثُّكِلِ(٤)

وبرغم من هذا الا أننا نجد أسامة بن منقذ يتمسك بالإيمان والجلد والتصبر مدركاً حقيقة الفناء وشمولية الموت مفوضاً أمره الى الله تعالى مؤمناً محتسباً:

إلى الله أشكو روعتي ورزيتي   وحُرقةَ أحشائي لفقد أبي بَكرِ(٥)

وتزداد وطأة الشعور بالغربة بعد أن تقدمت به السن وفقد الملاذ الذي يأوي إليه فالشعور بدنو الأجل والاقتراب من النهاية من الدوافع المؤثرة في كتابة السيرة الذاتية، وكتابة السيرة في الأساس نوع من الاستجابة الضمنية لحب البقاء فمن هذا المنطلق،

---

(١) ابن منقذ، الديوان، ص١٥٤

(٢) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، المقدمة، ص٩

(٣) ابن منقذ، الديوان، ص٣٠٧

(٤) ابن منقذ، الديوان، ص٣٠٤

(٥) المرجع نفسه، ص٢٩٧

يسطر الكاتب حياته متمسكاً بوجوده مقاوماً هاجس الفناء والتلاشي منتجاً منها سلاحاً لحماية النفس من الضياع والتغييب.

ولقد شكلت وطأة الزمن لدى أسامة بن منقذ الأزمة الكبرى والصراع الحقيقي الذي تجلت آثاره بشكل مباشر بفقده أهم الآثار لديه التي طالما تغنى بها وهي الفروسية فقد شكل موت الفارس في نفس ابن منقذ وتحول الزمان به من فارس يجوب البلدان ويشق غبار المعارك إلى عجوز لا حول له ولا قوة، عاكفاً منفرداً في حصن" كيفا"[١] بعيداً عن المشاركة الحية في المعارك والتفاعل مع الأحداث السياسية أزمة كبيرة تجلت آثارها النفسية بما سطره بكتابه من مواقف تدل بشكل جلي على مقدار الحزن الذي آل إليه إذ، نراه يعقد مقارنة بين ماضيه وحاضره، مبرزاً الصراع الحقيقي برغبة الإنسان بالتمسك بمرحلة الشباب، وما فيها من حركة وحيوية، ونشاط، وقوة الزمن وتسلطه بتسيير بني البشر نحو الضعف والانحدار والوهن فنراه يقول: " فأعقبت النجاةُ من تلك الأهوال، ما هو أصعب من القتل والقتال وكان الهلاك في كنه الجيش، أسهل من تكاليف العيش. استرجعتْ منّي الأيَّام بطول الحياة، سائر محبوب اللذَّات، وشاب كدر النَّكد صفو العيش الرَّغد، فأنا كما قلت:

مع الثمانين عاثَ الدهرُ في جلدي وساءني ضعف رجلي واضطراب يدي
إذا كتبتُ فخطَّي جدُّ مضطرب كخطِّ مرتعش الكفَّين مرتعدِ
وإن مشيت وفي كّفي العصا ثقلت رجلي كأنّي أخوض الوحلَ في الجلدِ
فقل لمن يتمنَّى طولُ مُدّتِهِ هذي عواقب طول العمر والمدد[٢]

ويتابع ضعفت القّوة ووهت، وتقضَّت بلهنية[٣]العيش وانتهت، ونكسني التعمير بين الأنام، والخمول يؤول تعسُّر الظلام، حتى أصبحت كما قلت:

تناستني الآجال حتى كأنَّي دريئة[١] سفر بالفلاة حسير[٢]

---

(١) كيفا: يقال حصن كيبا، بلدة وقلعة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر في ديار بكر. انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٤٤٧

(٢) ابن منقذ، الديوان، ص٢١٢

(٣) البُلَهْنِيَةُ الرَّخاء وسَعَةُ العَيْش. ابن منظور، جمال الدين أبي الفضل (ت٦١١هـ)، لسان العرب، دار إحياء التراث ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١، باب(الهاء)، فصل(الباء)، مادة(بله).

ولَّما تدع منّي الثمانون مُنَّـة[3] كأنّـي إذا رمت القيام كسير
أؤدي صلاتي قاعدا وسجودها عليّ إذا رُمتٌ السُّجود عسير"[4]

"ولم أدر أن داء الكبر عامّ، يعدّي كلّ من أغلفه الحمام.فلمَّا توقَّلت[5] ذروة التسعين، وابلانـي مُّر الأيَّام والسنين، صرت كجواد العلاف لا الجواد المتلاف، ولصقت من الضعف بالأرض، ودخل من الكبر بعضي في بعض، حتى أنكرت نفسي، وتحسَّرت على أمسي"[6].

كما أنَّ الظروف التي تعايش معها ابن منقذ زادت من إحساسه بالغربة فقد قادته خطا النفي إلى أجواء مشتعلة بالاضطرابات السياسية والصراعات الاجتماعية فوجد نفسه يعيش في دائرة الحسد والتنكر والخذلان مجبراً على التعايش مع صفات ما عهدها في نفسه، ليتذوق طعم الغربة الذاتية، غربة الإنسان عن نفسه، وفي هذا كله لم يجد حلا لمعاناته سوى التنقل والترحال باحثاً عن بلاط يستقر فيه وبيئة تلائم أخلاقه هذا وقد أورد "ورضيت نفسي بالإنفراد في الغربة ومفارقة الأوطان والتربة"[7] وقال أيضا "فإن العمر طال ولزمت الانفراد والاعتزال"[8].

وفي هذا كله لم يجد أسامة بن منقذ شيئاً يخفّف من معاناة الغربة، سوى الحنين للماضي وذكرياته، فإنَّ الحنين كما يرى الخشروم "محاولة للانعتاق من وطأة الحاضر، وهو غربة عن الواقع، فحين يشعر المرء أن حياته قست عليه، فإنه يجد منفساً بالهروب إلى الماضي....، إذ يحس المرء بثقل الحياة ومآسيها، فيهرب إلى الذكريات الجميلة أو الحزينة، فالذكريات الجميلة تشعره بنوع من الاطمئنان إلى أنه إن كانت

---

(1) الدَّرِيئةُ: حَلْقةٌ يُتَعَلَّم عَليْها الطَّعْنُ؛ وقال أَبو زيد: الدَّرِيئةُ، مهموز: البَعِير أَو غيرُه الذي يَسْتَتِرُ به الصائد من الوَحْشِ، يَخْتِل حتَّى إِذا أَمْكَنَ رَمْيُه رَمَى. المرجع نفسه، باب(الهمزة)، فصل (الدال)، مادة (درأ).

(2) حسير أَي كليل كما تَحْسِرُ الإِبلُ إِذا قُوِّمَتْ عن هُزال وكَلالٍ. المرجع نفسه، باب(الراء)، فصل(الحاء)، مادة(حسر).

(3) المُنّة: القوة، المرجع نفسه، باب(النون)، فصل(الميم)، مادة(منن).

(4) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٢١٣

(5) التَّوَقُّل: الإِسراعُ في الصُّعود، ابن منظور، لسان العرب، باب(اللام)، فصل(الواو)، مادة(وقل).

(6) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص ٢٠٧

(7) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص ٢١٣

(8) المرجع نفسه، ص٢٤٥

حياته الحاضرة قاسية، فإنه قد مرت به أوقات عاش فيها حياة هانئة سعيدة، فترضى نفْسه ويقرّ عينا"(١).

وفي هذا نجد أسامة بن منقذ يسترجع الماضي محاولاً أن يستعيد الأيام الخوالي مثبتا للجميع تميزه وفرادته وإن جار عليه الزمان، فهو ما يزال قادراً على تخليد نفسه بما صنع في ماضيه من مجد وقد ذكر شكري المبخوت " قضية الإحساس الداخلي بالّتميز والفراده هي من القناعات المتكونة مسبقاً في الذات فلا يمكن لأي شخص أن يروي للناس قصة حياته إلا إذا كان واعياً الوعي كله بما لوجوده من فرادة وتميز حتى تكون سيرته الذاتية جديرة فعلاً بعناية الآخرين"(٢)، ونجد أصداء هذا التميز واضحة في كتاب الإعتبار وهذا ما سنشير له بالتفصيل عند الحديث عن ملامح شخصيته.

١.٣.١ دلالات العنوان

يُعدُّ العنوان لأي كتاب كالاسم لأي كائن حي، وهو عتبه من عتبات الدخول للنص وفهم مضامين شفراته وفهم محمولاته الدلالية، بما يعطيه من انطباع أولي عن المحتوى، وبما يمارسه من تشويق وإثارة للمتلقي، فمن خلاله يستدل المتلقي على محتوى النص وحيثياته خالقاً من خلاله صورة أولية عن مدلولات النص وما يخفيه من رموز.

لقد أهمل الدارسون العرب والغربيون قديماً تحليل العنوان والوقوف على ما يحويه من دلالات، لأنهم اعتبروه هامشا لا قيمة له وملفوظا لغوياً لا يقدم شيئا في تحليل النص الأدبي؛ لذلك تجاوزوه إلى النص إلى أن جاء كل من الناقد لوسيان گولدمان الذي دعا الدارسين والباحثين الغربيين إلى الاهتمام بالعتبات بصفة عامة، والعنوان بصفة خاصة وأكد في قراءته السوسيولوجية للرواية الفرنسية الجديدة مدى قلة.

وتُكمِل بعده جيرار جينيت التي قدمت أهم دراسة علمية منهجية في مقاربة العتبات بصفة عامة والعنوان بصفة خاصة؛ لأنها تسترشد بعلم السرد والمقاربة النصية

---

(١) الخشروم، عبد الرزاق، الغربة في الشعر الجاهلي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط١، ص٢٤١.

(٢) المبخوت، شكري، سيرة الغائب سيرة الآتي، دار الجنوب، تونس، ١٩٩٥، ص١٠٥

فـي شـكل أسـئلة ومسـائل، وتفـرض عنـده نوعـا مـن التحليـل[١]، حتـى جـاء المؤسـس الفعلـي(لعلم العنوان) ليوهويلو؛ حيث قام بدراسـة العنونـة من منظور مفتوح يستند إلـى العمق المنهجي والاطـلاع الكبير علـى اللسانيات ونتائج السيميوطيقا[٢] وتـاريخ الكتـاب والكتابة.

فقد رصـد ليوهويلـو العنونـة رصـدا سيميوطيقيا مـن خـلال التركيـز علـى بنائهـا ودلالاتها ووظائفهـا، كمـا لخص شـارل جريفـال وظـائف العنـوان فـي ثلاثـة أمـور هـي: التحديد والإيحـاء ومنـح النـص الأكبـر قيمتـه زيادة علـى ذلـك مـا قالـه رولان بـارت " أنَّ العنوان يفتح شهية المتلقي للقراءة[٣].

أما في الدراسات العربية فقد أشـار محمد الجزار في كتابه "العنوان وسيموطيقيا الاتصـال الأدبي"، أن العنوان بالنسبة للكتـاب "كالاسم به يعرف وبفضله يتداول، يشـار به إليه، ويدل به عليه، يحمل وسم كتابه، وفي الوقت نفسه يسمه العنوان بعلامة ليست مـن الكتـاب وجعلـت لـه لكـي تـدل عليـه، والعنـوان ضـرورة كتابيـة، هكـذا لغويـاً وهكـذا اصـطلاحيا"[٤]، ومن خـلال مـا تقدم يمكننـا أن نلحظ أن مـا تعنـون بـه السيرة الذاتيـة أو المـذكرات تشـكل عنصـراً هامـاً فـي تحديـد مضـمونها، فقـد قـال محمـد فكـري: "عنـوان المذكرات يمثل تحدياً واضحاً صعباً أمام كل من يكتب مذكراته، كذلك يعكس العنوان الذي يستقر عليه المؤلف كثيراً من ملامح فكره وتفكيره، وإن كثيراً من العناوين تتميز بقدرة رائعة على إعطاء الإيحاءات المتعددة"[٥].

كمـا يؤكد أن أوليـة تلقـي العنـوان تقوم علـى مسـتويين؛ الأول: مسـتوى ينظـر فيـه إلـى العنـوان باعتبـاره بنيـه مسـتقلة لهـا اسـتقلالها الـدلالي الخـاص، والثـاني: مسـتوى

---

(١) جينيت، جيرار، مدخل لجامع النص، ترجمة: عبد الرحمن أيوب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٥، ص١٧

(٢) السيموطيقيا: مصطلح إنجليزي، يقابله بالفرنسية (السيمولوجيا) وهو علم الذي يدور في فلك العلامات بكل صورها وتجلياتها، ومجاله الرموز والعلاقات والإشارات التي لها علاقة بالفنون البصرية. انظر: قاسم، سيزا، أنظمة العلامات مدخل إلى السيموطيقيا، دار الياس، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٧، ص٩

(٣)ابن حميد، رضا، الخطاب الشعري الحديث من اللغوي إلى التشكيل البصري، مجلة فصول، مجلد١٥، العدد٢، ١٩٩٦، ص٩٠

(٤) الجزار، محمد فكريا، العنوان وسيموطيقيا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية العام للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨، ص٣٤

(٥) المرجع نفسه، ص١٥

تتخطى فيه الإنتاجية الدلالية لهذه البنية حدودها متجهة إلى العمل، ومشتبكة مع دلائليته دافعة ومحفزة إنتاجيتها الخاصة بها"، وبناء على ذلك يمكننا أن نطرح السؤال التالي: هل لعنوان كتاب "الإعتبار" دلالات ترتبط بمحتواه؟ وللإجابة عن هذا السؤال لابد من البحث عن كلمة عَبَرَ ومشتقاتها في المعاجم العربية ومدى صلتها بالعنوان الذي اختاره أسامة بن منقذ لكتابه.

فقد ورد في المعاجم العربية العِبَرُ: جمعُ عِبْرة، وهي كالمَوْعِظة مما يَتّعِظُ به،والعِبرة: الإعتبار بما مضى[1].

وقد أورد في ثنايا كتابه هذه الكلمة ومشتقاتها بدلالة العبرة والاتعاظ! وفيما يلي مسرد لمادة عِبْرة بهذه الدلالة:

"رضوان يقتله الحرس الفاطمي: وكنت قد ركبت انا وأصحابي الى باب القصر، قبل دخوله البلد، فوجدت أبواب القصر غلقة وما عندها أحد، فرجعت نزلت داري، ونزل رضوان في الجامع الاقمر، واجتمع اليه الأمراء وحملوا إليه الطعام والنفقة، وقد جمع الحافظ قوماً من السودان في القصر شربوا وسكروا، وفتح لهم باب القصر فخرجوا يريدون رضوانا، فلما وقع الصباح ركب الأمراء كلُّهم من عند رضوان وتفرقوا وخرج هو من الجامع، وجد حصانه قد أخذه الركابي وراح، فرآه رجل من صبيان الخاصّ واقفاً على باب الجامع فقال: يا مولاي ما تركب حصاني؟ قال: "بلى"، فجاء اليه يركض وسيفه في يده، فأومأ كأنه يميل للنزول وضربه بالسيف، فوقع، ووصله السودان قتلوه، وتقاسم أهل مصر لحمه يأكلونه ليكونوا شجعاناً، فقد كان فيه معتبر وواعظ لولا نفاذ المشيئة[2].

وللدلاله على تأليف أسامة الكتاب لأخذ العبرة والعظة مما ورد فيه من أخبار وحوداث وحكايات، فقد أورد عدداً من القصص تؤكد ذلك ومن الأمثله عليها:

---

(١) انظر: ابن منظور، لسان العرب، باب(الراء)، فصل(العين)، مادة(عبر).

(٢) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٤١

مغـامرات أخـرى:"...... وعـاد الوالـد – رحمـه الله – وكنـت فارقتـه مـن كفـر طـاب[١]، وقـد كسـر العسـكر، ونحـن فـي كفـر طـاب نحرّزهـا نريـد نعمّرهـا، وكـان اسباسـلار[٢] سلَّمها الينـا، ونحن نخرج الأسارى كلّ اثنين في قيد من اهل شيزر وقد احترق نصف ذا وقد بقيت خذه، وذا قد مات في النار، فرأيت منهم عبرة عظيمة، فتركناها وعدنا إلى شيزر مع الوالد – رحمه الله– وقد أخذ كل ما كان معه من الخيام والحمال والبغال والبرك والتحمل وتفرق العسكر"[٣].

ومنها: تأملات أسامة بشأن طول العمر: "وأنا القائل بمصر أذمُّ من العيش الراحة والدعة وما كان أعجل تقضّيه وأسرعه:

وفي تغاير صرف الدهر معتبرٌ   وأيُّ حالٍ على الأيَّام لم تحل

"ركوب الأخطار لا ينقص الأعمار: فإنني رأيت يوم تقاتلنا نحن والإسماعيلية[٤] فـي حصـن شـيزر مُعَتَبَراً يوضـحُ للشـجاع العاقل، والجبـان الجاهل، أن العمـر موقَّـت مقدر، لا يتقدّم آجله ولا يتأخر"[٥].

وقد كانـت هـي الدلالـة الأساسـية لمعنـى الإعتبـار فـي الكتـاب فقد ذكـره محققـه ولقد "رمى المؤلف من وراء كتابه إلى تعليم أمثولة أدبية، لذلك سمّاه "كتاب الإعتبار" وأورد موادَّ يرجى منها أن يعتبر القارئ بما حلّ بغيره يستفيد لنفسه.

أما العظَّة التي اراد ان ينقشها على ذهن القارئ بحيث لا تمحى فهي "ان ركوب أخطار الحروب لا ينقص مدة أجل المكتوب"[٦].

٢.٣.١ الإعتبار بقصد التأويل والتفسير

---

(١) كفرطاب بلدة بين المعرة وحلب. القزويني، المقفى، ج٢، ص٢٤٨.

(٢) إسباسـلار أو إسفهسـلار، فارسية، وهـو شـرف الـدين مـودود بـن ألتـو نتكين حـاكم الموصـل باسم السـلطان السلجوقي محمد شاه في اصبهان. وهو قائد الجيش الذي نفذه السلطان لمحاربة تنكرد،بناء على طلب الخليفة العباسي. ابن منقذ، كتاب الإعتبار، الحاشية، ص٨٨.

(٣) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٩٨

(٤) فرقه عسكرية وقد ذكر ابن الأثير أو وقعة الإسماعيلية في شيزر كانت في سنة ٥٠٢هـ

(٥) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٢٠٩

(٦) المرجع نفسه، ص٢٠٩

من خلال مدارستنا لكتاب الإعتبار نلحظ أن أسامة بن منقذ يتعجب كثيراً من الأحداث والسلوكات، وهذا يحيلنا مباشرة إلى مدلول العنوان فهل جاءت لفظة الإعتبار بمعنى التأويل والتفسير؟ من خلال تتبع لفظة الإعتبار بالمعاجم العربية: نجدها جاءت تحمل هذا المعنى، فقد ورد في مجمل اللغة (عبر): العبر والتعبير: فسر الرؤيا[١].

وورد في متن اللغة: عبر الرؤيا فسَّرها وأخبر بما يؤول إليه أمرها واعتبر منه: تعجَّب وتدبَّر[٢].

وورد في قطر المحيط: عبَّر الرؤيا عبراً وعبارةً فسرها وأخبر بآخر ما يؤول إليه أمرها[٣].

ومن خلال ما سبق نطرح التساؤل التالي؟ هل كان يرمي أسامة بن منقذ من تأليف كتابه تأويل الأحداث والتعجب منها بعد أن تقدم به السن؟ يمكن ان نلحظ أن أسامة بن منقذ كان يسترجع الأحداث التي مرّبها والعوامل المؤثرة فيها، لذلك لم تكن الأحداث المسرودة مقصودة لذاتها وإنما سُردت رغبةً من أسامة بن منقذ في إدراك المعنى الخفي أو الباعث المتحكم فيها، لذا نجده في الكتاب يكثر من الألفاظ التي تشير إلى الاستعجاب، كقوله:

١. كلب يخلص صاحبه من أسد: "ومن عجيب أمور السباع أن أسداً ظهر عندنا في أرض شيزر"[٤].
٢. عجائب طبهم: "ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة كتب الى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه.."[٥].
٣. مسلمة تقتل زوجها: وشاهدت من نخوات النساء عجباً[٦].

---

(١) ابن فارس، أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: زهير عبدالمحسن، مؤسسة الرسالة، القاهرة، (د.ت)، ج٣، ص٤٣٦.

(٢) رضا، الشيخ أحمد، معجم متن اللغة، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط٢، ١٩٦٠، المجلد٤، ص١١

(٣) البستاني، بطرس، قطر المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م، ص٣٦١.

(٤) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٣٧

(٥) المرجع نفسه، ص١٧٠

(٦) المرجع نفسه، ١٦٣

ومرة أخرى نعود إلى المعاجم لنستوضح دلالة كلمة (عَجَبَ)، فقد ورد في لسان العرب العُجْبُ والعَجَبُ: إنكارُ ما يَرِدُ عليك لقِلَّةِ اعْتِيادِه) وأنَّ الآدمّي يتعجَّب من الشيء، إذا عظم موقفه عنده، وخفي عليه سببه)، ولعلّ عدم معرفة سبب وقوع الشيء هي العلّة في العَجب، لذا قال البلاغيّون إنَّ التعّجب "تعظيم الأمر في قلوب السامعين، لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره وأشكاله"[١].

وهذا المعنى اللغويّ يرتبط ارتباطاً كبيراً بمحاولة أسامة أن يفسَّر هذه الأحداث التّي تغاير المألوف، ولكنّ عقله لا يستطيع أن يدرك لها سبباً، لذلك يحيل علّة وقوعها إلى القدرة الإلهية بعد أن عجز عن تفسيرها، ومن هنا كثرت عبارات التنزيه والتعظيم لله سبحانه، وهو يورد مثل هذه الحكايات العجيبة كقوله: "فأيسر الأشياء يقتل إذ وقع الأجل، فمثلاً يروي قصة رجل يقتل أسداً ولكنه يلسعه عقرب فيموت، فسبحان الله الخالق.

ويورد قصصاً مشابه مثل التركماني الذي يموت من جرح سطحي وآخر يموت من لسعة دبور فيعلق قائلاً " فأيسر الأشياء يضل إذا فرغ الأجل، والفال موكل بالمنطق"[٢].

٢.٣.١ الإعتبار بمعنى البكاء:

كما ذكرنا سالفاً فن السيرة فن الأزمات، فكاتب السيرة كاتب مأزوم، فالأديب يبكي بسيرته نفسه وما تعرض له من أزمات فهل كان أسامة بن منقذ يبكي بسيرته نفسه وما عايش من ظروف لذلك عنون كاتبه الإعتبار ليحمل هذا المغزى؟

ومن خلال تتبع لفظة الإعتبار بالمعاجم العربية نجدها جاءت تحمل معنى العبرة "البكاء والحزن" فقد: ورد في مجمل اللغة: العِبْرَةُ: الدَّمع. وعبر فلان: إذا سالت من الحزن دمعته. والعِبْرَةُ: الدمعة، "وهو أشهر معانيها". أو أن ينهمل الدمع ولا يسمع

---

(١) الزمخشري، محمود بن عمر، أساس البلاغة، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٢، ج٢، ص٣٧٦

(٢) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٣٨

البكاء، أو هي الدمعة قبل أن تفيض، أو تردد البكاء في الصدر، أو الحزن بلا بكاء[1].

ومن خلال قراءة الإعتبار يدرك أنها سيرة متجهمه نادراً ما يضحك فيها أسامة،فقد كتب الماضي بمافيه من قوة وتحقيق للذات، والواقع الأليم بمافيه من ضعف وعجز، وحاول الكاتب في سيرته أن يجمع هاتين الصورتين في سياق واحد فخطها بدمعه، فجاءت كثير من عباراتها بكاءاً باللغة الموحية والصورة المؤثرة كما في قوله يصف ضعفه وعجزه "أعجزني وهن السنين،عن خدمة السلاطين. فهجرت مغشى أبوابهم، وقطعت أسبابي من أسبابهم، واستقلت من خدمتهم، ورددت عليهم ما حوّلوني من نعمهم، لعلمي أن ضعف الهرم، لا يقوى على تكاليف الخدم، وأن سوق الشيخ الكبير، لا ينفق على الأمير، ولزمت داري وجعلت الخمول شعاري، ورضّيت نفسي بالإنفراد في الغربة، ومفارقة الأوطان والتربة، إلى أن تسكن نفارتها عن مرارتها وصبرت صبر الأسير على قدره، والظمّان ذي الغلَّة عن ورده"[2].

ومن خلال ما سبق آنفاً ندرك أن أسامة بن منقذ عنون كتابه الإعتبار وحمله عدة مدلولات جمعت بين العقلية والعاطفية قدمها كسلسة مترابطة بدأها بذكر الأحداث والمواقف لغاية الاتعاظ بها، ثم حاول تفسيرها وتأويلها لبيان الحكمة والغاية من سردها، ولكنه عجز فردها إلى القوة الإلهية المتحكمة في كل شيء وصاغ أسامة هذا كله بعبارة تتشح بالحزن والآسى يقف وقفة المتأمل ويرسم بكتابه أطلالاً لحياته فاجاشت أحاسيسه شوقاً لماض كان وذرفت عيناه ألماً وأسفاً لحاضر واقع.

---

(١) انظر: ابن منظور، لسان العرب، باب(الراء)، فصل(العين)، مادة(عَبَرَ).

(٢) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٢١٣

الفصل الثاني

النزعة المناقبية في كتاب الإعتبار

١.٢ شخصية أسامة بن منقذ وذويه:

يلاحظ أنّ من يدون سيرته الذاتية يقف كثيراً عند نفسه مورداً في مجمل حديثه ما يمتاز به من صفات شخصية وميول سياسية واجتماعية وأحوال حياته وفي هذا نجد أسامة بن منقذ قد أورد في كتابه كثيراً من الأخبار التي لخص لنا بها نفسه من شتى الجوانب فقد مثلت شخصية أسامة الشخصية الأساسية في الكتاب وكانت المحور الذي تدور حوله الأحداث وقد اتخذ الحديث عن نفسه ،طابعاً مناقبياً إيجابياً وقلما تحدث عن المواقف السلبية أو الصفات غير المرغوب فيها.

أما ما أورده أسامة في كتابه عن ولادته ونشأته وأسرته فقد جاء على النحو التالي:

١.١.٢ اسمه ونشأته:

هو أسامة بن مرشد بن علي بن المقلّد الكناني الملقب بمؤيد الدولة[١] **ويستدل** من كتاب الإعتبار أنّه قد ولد يوم الأحد ٢٧ جمادى الآخرة سنة ٤٨٨هـ حيث ذكر في سياق حديثه عن ابن عمه،سنان الدولة شبيب بن حامد بن حميد – رحمة الله – في الحصن وهو تربى "ولدتي وُلدتُّ أنا وهو في يوم واحد الأحد السابع والعشرين من جمادي الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربع مائة"[٢].

أما نشأته فقد كان لها آثر كبير في صقل شخصيته، فقد ترعرع أسامة في كنف أبويه وعمه وجدته حيث كان لهم الأثر الكبير في تنشئته، ليخرج شهماً فارساً مجاهداً مقاتلاً أديباً وشاعراً ومّما يستشف من كتاب الإعتبار أنه كان لوالده وعمه تأثيراً كبيراً في شخصيته وقد كان والده مضرب المثل في الشجاعة والعلم والزهد والتقوى وقد عرض عليه أن يكون حاكماً لشيزر إلا أنه تنازل عنه لأخيه سلطان زاهداً منه فيه لا

---

(١) الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج١، ٤٩٧

(٢) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٥٩

عجزاً عن النهوض بأعبائه إلا أنه بقي طوال حياته يقف مع أخيه يساعده على النهوض بمهام الإمارة والتصدي للأخطار التي كانت تداهم شيزر.

ومما يستدل على تقواه وزهده ما أورده أسامة: "وذلك أن والدي –رحمة الله– كان قد فرغ زمانه لتلاوة القرآن والصيام والصيد في نهاره، وفي الليل ينسخ كتاب الله تعالى"[١].

كما يتبين لنا من خلال المدارسة أن والد أسامة اتخذ النسخ غاية لخدمة دينه وكسب قوته، مستغلاً ما عرف به من حسن الخط فقد إلى أشار أسامة لذلك بقوله: "وكان يكتب خطاً مليحاً، فما غيرت تلك الطعنة من خطّه وكان لا ينسخ سوى القرآن. فسألته يوما فقلت: يا مولاي كم كتبت ختمة ؟ قال: الساعة تعلمون. فلمَّا حضرته الوفاة قال: في ذلك الصندوق مساطر كتبت على كلّ مسطرة ختمة ضعوها (يعني المساطر)تحت خدّي في القبر "فعددناها فكانت ثلاثاً وأربعين مسطرة"[٢].

كما كان والد أسامة ملماً بعلوم القرآن "فقد كتب بعدّة ختمات :منها ختمة كبيرة كتبها بالذهب وكتب فيها علوم القرآن قراءاته وغريبه وعربيتَّه وناسخه ومنسوخه وتفسيره وسبب نزوله وفقهه، بالحبر والحمرة والزرقة، وترجمه بالتفسير الكبير.

وكتب ختمة أخرى بالذهب مجرّدة من التفسير. وباقي الختمات بالحبر مذهَّبة الأعشار والأخماس والآيات وروءس السور ورؤوس الأجزاء"[٣]. كما كان ذا علم ودراية بعلوم النجوم وكان يحرّض أسامة على معرفة علم النجوم فيأبى، وفي ذلك يقول "فكان يريني النجوم ويعرّفني أسماءها"[٤]. وأشار أسامة بشجاعة والده وقوته فقد كان شديد المباشرة في الحرب وفي بدنه جراح هائلة ويقتبس من والده عبارة قالها في إحدى المعارك "يا ولدي في طالعي إنني لا أرتاع"[٥].

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٢٥٥

(٢) المرجع نفسه، ص٦٨

(٣) المرجع نفسه،ص٦٨

(٤) المرجع نفسه، ص٧٤

(٥) المرجع نفسه، ص٧٢

وأشاد أسامة بمهارة والده بالصيد وحبه له "فأمَّا ما كان بشيزر فكان مع الوالد رحمّه الله وكان مشغوفاً بالصيد لهجاً به وبجميع الجوارح"[١].

وعرض أسامة في كتاب الإعتبار مواقف تدل على شجاعة والده باستخلاص الأسرى:

كما امتاز والده بالفطنة والتدبر وبعد النظر وحب الاستطلاع ومعرفة تحركات العدو، فأورد تحت عنوان "والد أسامة يتوقّف عن الصيد ليراقب الإفرنج":

(ونزل علينا صاحب أنطاكية وقاتلنا ورحل عن غير صلح.فركب الوالد – رحمه الله – إلى الصيد وآخرهم ما أبعد عن البلد. فتبعهم خيلنا، فعادوا عليهم والوالد قد أبعد عن البلد.

ووصل الإفرنج إلى البلد والوالد قد طلع تل سكّين[٢] يراهم وهم بينه وبين البلد، ومازال واقفاً على التل إلى أن انصرفوا عن البلد وعاد إلى الصيد"[٣].

كما عرف والده بالحنكة فقد كان له علاقات مع ملوك الإفرنج كالملك "بغدوين" الأول الذي كان وصيّاً على عرش أنطاكية حيث عمل به إحسانا لم ينسه له، وكان على صداقة معه فكان لهذه الواقعة أثر إيجابي على علاقة أسامة بالإفرنج وسهل بشكل كبير من المهام التي كان يتولاها.

وفي هذا كله نجد الوالد يغرس هذه السمات بولده حيث يسرد أسامة بأن والده كان يصطحبه معه دافعاً به إلى المعارك ومصارعة الوحوش والحيوانات المفترسة في بيئةعرفت وبصعوبة تكوينها، وخطورتها ليصقل شخصية ولده بالشدة والقوة والصلابة منذ نعومة أظفاره.

وفي هذا يورد أسامة: "ومرة كنت معه،رحمه الله ،وهو واقف في قاعة داره وإذا حية عظيمة قد أخرجت، رأسها على افريز رواق القناطر التي في الدار، فوقف يبصرها، فحملت سلّماً كان في جانب الدار أسندته تحت الحية وصعدت إليها، وهو

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٣٢.

(٢) يقع إلى الجنوب الغربي من شيزر

(٣) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٢٧٣

يراني فلا ينهاني، وأخرجت سكيناً صغيرة من وسطي، وطرحتها على رقبة الحيَّة وهي نائمه وبين وجهي وبينها دون الذراع، وجعلت أحزّ رأسها – وخرجت التفَّت على يدي – إلى أن قطعت رأسها وألقيتها الى الدار وهي ميتة"(١).

ومن هنا ندرك ان والده اهتم بتربية ابنه تربية دينية وحربية ودربّه على الفروسيّة حيث غرس به حيث غرس به الاقدام والشجاعة وعدم الخوف والإلتزام الديني والخلقي فنشأ قوياً شجاعاً منذ صغره، ويذكر أنه أول يوم شارك فيه في القتال كان في الخامسة عشرة من عمره شارك قومه في صد الهجوم الذي شنه حاكم إنطاكية الصليبي تنكريد على شيزر، "وأنا إذ ذاك واقف خلف والدي وأنا صبي وهو أول يوم رأيت فيه القتال" (٢) ومما يدل على العلاقة الحميمة بينه وبين والده ترحمه عليه بكل ماسرد عنه إجلالاً وحباً وإحتراما.

أما والدته فقد كانت مضرب المثل للمرأة العربية الأصيلة التي تدافع عن أرضها وعرضها ويروي أسامة حادثة وقعت لها حين هاجمت الإسماعيلية شيزر ورجالها غائبون عنها فبادرت أمه إلى السلاح ووزعته. وجاءت إلى إبنتها الكبرى وآلبستها الخف والأزرار وأجلستها على روشن شرف على الوادي حتى إذا وصل الأعداء إليها تدفعها وترميها إلى الوادي.

فهي تفضل الموت على أن تراها أسيرة في يد العدو، ويقول أسامة: "فشكرتها على ذلك وشكرت الأخت، فهذه النخوة أشد من نخوات الرجال"(٣).

أما أخوته فقد أورد أخبارهم وهم ثلاثة فقد ذكر بأنهم فرسان أشاوس يتحلون بالدين والشجاعة والعلم وهم ثلاثة؛ عز الدولة أبو الحسن، نجم الدولة أبو عبدالله بهاء الدولة، وسرد أخبارهم على النحو التالي هذا يقول: "وكان أخي عزّ الدولة أبو الحسن علي رحمة الله من فرسان المسلمين يقاتل للدين لا للدنيا"(٤).

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٣٣

(٢) المرجع نفسه، ص ١٦٠

(٣) المرجع نفسه، ص١٦٠

(٤) المرجع نفسه،ص١٦٠

وأورد أيضاً: "فسرت إلى مصر وبقي أخي عّز الدولة أبو الحسن عليّ –رحمه الله– بعسقلان، فخرج عسكرها إلى قتال غزّة فاستشهد –رحمه الله– وكان من علماء المسلمين وفرسانهم وعبَّادهم"[1].

أما أخوه نجم الدولة أبو عبد الله محمّد رحمة الله ،فقد شاركه بإحدى وقعاته ومعاركه مع الإفرنج وقد أخذ أسيراً آنذاك "وأخذوا أخي نجم الدولة أبا عبد الله محمداً رحمة الله أسيراً"[2].

أما أخوه بهاء الدولة فقد أشار أسامة إلى مشاركته له بوقعات عدة وخروجهم سوياً في أكثر من حادثة ومساندتهم بعضهم البعض وفي هذا اقتتالهم مع عسكر حماة وخروجه معه لقتل آسد ظهر في جسر شيزر" إذ يذكر هذه الحادثة بقوله: "وقد خرجنا يوماً لقتال أسد ظهر على الجسر فلمّا وصلناه حمل علينا من أجمة كان فيها .فحمل على الخيل، ثم وقف، وأنا وأخي بهاء الدولة منقذ،رحمة الله بين الأسد وبين موكب فيه أبي وعمّي"[3].

ومن الشخصيات التي أثرت في شخصية أسامة بن منقذ جدّته جدته فقد نال أسامة حظاً وافراً من رعايتها ونصحها حيث ندرك مما سرده أنها ذات علم ودراية بطبائع النفوس البشرية وتقلباتها وذات بصيرة حادة ونظرة ثاقبة لعواقب الأمور، وفي ذلك يورد ما قدمته له من نصح عند دخوله البلدة وهو يحمل أسدا قد اصطاده يقول أسامة: "وحملنا الأسد ودخلنا البلد العشاء، وإذا جدّتي لأبي – رحمها الله– قد جاءتني في الليل وبين يديها شمعة – وهي عجوز كبيرة قد قاربت من العمر مائة سنة، فما شككت أنها قد جاءت تهنئني بالسلامة وتعرّفني مسرتها بما فعلت، فلقيتها وقبَّلت يدها فقالت لي بغيظ وغضب "إيش يحملك على هذه المصائب التي تخاطر فيها بنفسك وحصانك وتكسر سلاحك ويزداد قلب عمك وحشة ونفوراً"[4].

([1]) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٢٠

([2]) المرجع نفسه، ص٣٤

([3]) المرجع نفسه، ص١٣٣

([4]) المرجع نفسه، ص١٦٠

أما ما أورده أسامة عن أسرته المقربة أعني الزوجة والأولاد فقد كان نادراً ولم يسم أحداً منهم فيما سرد وجاء حديثه عنهم بمواضع تنقلاته وترحاله.

ونوّه أسامة بصفات عمّه عزّ الدين ومناقبه ولاسيما، شجاعته وفي هذا يقول "ولقد رأيت عمّي عزّ الدين أبا العساكر سلطان – رحمه الله – وهو أشجع أهله له المواقف المشهورة والطعنات المذكورة"[1] ومن هذه الصفات؛ النخوة والغيرة على أعراض المسلمين وفي هذا أورد تحت عنوان عم أسامة يفك اسر مسلمة "ما أدع امرأة تزوجتها وانكشفت عليّ في أسر الإفرنج "فاشتراها – رحمه الله – بخمس مائة دينار وسلَّمها إلى أهلها"[2] وأعجب الإفرنج بحسن إدارة عم أسامة ورجاحة عقله فقد وصفه صاحب إنطاكية[3] بأنه رجل عاقل فسأله عمه من أين عرفت اني عاقل وما رأيتني قبل ساعة؟ قال: لأني رأيت البلاد التي مشيت فيها خربة وبلدك العامر، فعرفت أنك ما عمَّرته إلا بعقلك وسياستك"[4] كما عرف بالفطنة والذكاء والخبرة في شؤون القتال وأحوال العدو وفي ذلك يقول: "وشاهدت ما يقارب ذلك أن الإفرنج لعنهم الله، أغاروا علينا ثلث الليل الآخر.فركبنا نريد نتبعهم .فمنعنا عمّيّ عزّ الدين – رحمه الله– من إتباعهم وقال: هذه مكيدة والإغارة تكون بالليل"[5] واهتم عمه بتربيته وتنشئته تنشئه قيادية؛ ليكون خلفاً له في حكم شيزر، لانه لم يكن قد رزق من ولدٍ يخلفه من بعده من صلبه وأورد أسامة كثيرا من المواقف التي تبين مدى رعاية عمه له واهتمامه بتربيته فهو دائما يتفقد حضور فكره في القتال ويمتحنه بالمسئلة كما أشركه عمه بكثير من المعارك التي دارت بينهم وبين الإفرنج وبقي أسامة فارس شيزر ينال الحب والرعاية من عمه إلى أن رزق بولد فانقلب عليه وتغير حاله خشية على أولاده والحكم من بعده ومع هذا نجد أسامة عند ذكر عمه يفتخر به ويترحم عليه دون أن يحمل أي ضغينة أو بغضاء، ومن هنا تبدأ أخبار تنقلاته وأسفاره.

---

[1]) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٨٢

[2]) المرجع نفسه، ص١١٣.

[3]) روجار Roger

[4]) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١١٣

[5]) المرجع نفسه، ص٢١٠

٢.١.٢ ترحاله وتنقلاته

خرج أسامة من شيزر متجهاً إلى الموصل التي كانت خاضعة لإمارة عماد الدين زنكي المعروف بالبسالة والشجاعة فاتصل به وانتظم بجنده وحارب تحت أمرته وأشترك معه في حملاته ضد الصليبين واستطاع أن يتصل بأميرها شهاب الدين محمود الذي أكرمه وقربه منه فأصبح له شأن في توجيه شؤون الدولة من الناحيتين السياسية والعسكرية وتسييرها إلى أن تعرضت شيزر لهجوم من قبل الإفرنج عام(٥٣٢هـ)، فعاد أسامة مدافعاً عنها بمساندة الزنكيين حتى فكَّ الله حصارها.

وكانت شجاعة أسامة وبسالته سبباً في خروجه من شيزر نهائياً منفياً.فاتجه أسامة صوب دمشق فوجد ترحيباً من حاكمها معين الين أنر[١]، حيث إعتمد عليه في تدبير الأمور السياسية والعسكرية واستطاع في تلك الفترة أن يطلع على أحوال الصليبين عن قرب حيث كان له دور كبير في الصلح بينه وبين جمال الدين محمد بت تاج الملوك بوري بن طغتكين وذلك ليد كانت لأبيه على بغدوين الملك والد الملكة امرأة ومن خلال تلك الزيارات تعرف على أحوالهم وعاداتهم.

إلا أنّ الوشاة والحساد كادوا له حتى خرج من دمشق متجهاً إلى مصر برفقة زوجته وأبنائه وأخيه محمد "وصل القاهرة يوم الخميس الثاني من جمادى الأخرة (٥٣٩هـ)"[٢] في خلافة الحافظ لدين الله الفاطمي وقربه منه رغبةً في جعله حامياً يدفع عنه أعداءه. لكن صادف وصوله حدوث فتنة بين الفرق العسكرية الفاطمية فكان ملتزماً في بيته هو وأهله "ونحن نبيت ونصبح بالسلاح خوفاً من ميلهم علينا"[٣]؛ أي أن هذه الفتنة كانت شديدة وأن مصر كانت تعيش مرحلة من الفوضى السياسية .

---

(١) مملوك طغتكين صاحب دمشق، حفظ دمشق حين قُتل شمس الملوك إسماعيل بن تاج الملوك بوري بن طغدكتين سنة ٥٣٩هـ، وقد توفي سنة ٤٥٥هـ، الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، (١٩٩٧)، سير أعلام النبلاء، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العموري، ط١، دار الفكر، بيروت، ج٢٠، ص٢٢٩.

(٢) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٦

(٣) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٧

وما لبث أن توفي الحافظ فتولى مكانه ابنه الظافر بأمر الله وكان طفلاً صغيراً آنذاك فيقول: "وهو صبي محمول على كتف أستاذ من أستاذي القصر"(١)، ليشهد فتنة أخرى تمثلت في الصراع الوزاري بين وزير الفاطمي نجم الدين بن مصال(٢)، والأمير أبو الحسن بن سلار وقد كان أسامة مرافقاً لابن السلار الذي كان يستشيره في أحلك الظروف حتى أنه آمره بالمكوث معه في داره وفي هذا يقول: "امرني أن أبيت أنا وأصحابي في داره، وافرد لي موضعاً في الدار أكون فيه"(٣).

ثم يسرد ابن منقذ أحداث مشاركته في المعركة التي حدثت بين ابن السلار وابن مصال والهزيمة التي حلت بابن مصال فكانت الوزارة من نصيب ابن السلار الذي "خلع عليه الظافر خلع الوزارة ولقبه الملك العادل وتولَّى الأمور"(٤).

ولم تقف الأحداث عند هذا فحسب بل يورد أسامة فتنة مقتل ابن سلار على يد نصر ابن عباس "وابن عباس قد رتّب أمره مع الظافر، ورتّب معه قوم من غلمانه،يهجم بهم على العادل في داره إذا أبرد في دار الحرم ونام، فيقتله"(٥).

ويورد ابن منقذ انه حضر مجلس ركن الدين عباس وهو يوبخ ابنه ناصر الدين لقتله ابن السلار، فدافع عن ناصر الدين بن عباس لأنه ما فعل ذلك إلا ليحظى بالوزارة يقول ابن منقذ: "فقلت لعباس: يا مولاي الأفضل كم تلوم مولاي ناصر الدين وتوّبخه وهو ساكت؟ اجعل الملامة لي فأنا معه في كل ما يعمله ما أتبرأ من خطئه ولا صوابه(٦). وبما أن ابن عباس هو من قتل ابن السلار فإن الظافر أراد له أن يصبح وزيراً بدلاً من والده فحرضه على قتل والده، ويتحدث أسامة عن مشاورة ابن عباس له في قتل والده ورفضه لذلك بقوله: "يا مولاي لا يستزلك الشيطان وتنخدع لمن يغرّك فما

---

(١) المرجع نفسه، ص٢٦

(٢) نجم الدين بن مصال أبو الفتح تولى وزارة الظافر بالله وسار إليه ابن سلار فقتله وتولى الوزارة مكانه، المقريزي، المقفى الكبير، ج٢، ص٥٥

(٣) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٨

(٤) المرجع نفسه، ص٩

(٥) المرجع نفسه، ص٢٢

(٦) المرجع نفسه، ص٢٤

قتل والدك مثل قتل العادل، فلا تفعل شيئاً تلعن عليه إلى يوم القيامة فاطّلع والده على الأمر، فلاطفه، واستماله، وقرر معه قتل الظافر"[١].

ويتحدث أسامة في كتابه عن مذبحة أطاحت بالأمراء الفاطميين إخوة الظافر على يد عباس وابنه، بعد اتهامهم بقتل الخليفة وقد استنكر ذلك بالقول "وكان ذلك اليوم من أشد الأيام التي مرت بي لما جرى فيها من البغي القبيح الذي ينكره الله تعالى وجميع الخلق"[٢] مما اضطر أسامة للخروج من مصر متجهاً إلى دمشق حيث كانت خاضعة لحكم الدولة النورية، حيث اشترك في حملات نور الدين زنكي ضد الصليبين وتواردت عليه في دمشق رسائل الملك الصالح طلائع بن زريك[٣] تدعوه للعودة إلى مصر ويمنيّه بولاية إسوان وفي هذا أورد أسامة "ترجع إلى مصر وأنت تعرف ما بيني وبينك، وإن كنت متوحشاً من أهل القصر فتصل إلى مكة وأنفذ لك كتاباً بتسليم مدينة أُسوان "ونرى أسامة يستطلع رأي نورالدين زنكي فلا يقره بالعودة إليها قائلاً: "يا فلان، ما صدقت متى تخلص من مصر وفتنها، تعود اليها! العمر أقصر من ذلك"[٤] ويعده بإحضار أهله من مصر، ويحصل نور الدين على آمان وعهد من ملك الإفرنج لأهل أسامة ويرسله أسامة مع كتاب منه إلى الملك الصالح كي يسير إليه أهله وأولاده فأرسلهم ولكن السفينة التي أقلتهم تتعرض للعطب وتقع بيد الصليبين الذين غدروا بهم ونهبوا ما كانوا يحملونه من حليّ وأموال لكنهم نجو بحياتهم[٥].

ثم أنتقل أسامة بأهله عام (٥٧٠هـ) إلى حصن كيفاوأقام به عشر سنوات في رعاية الأمير قره أرسلان بن سقمان الأرتقي إلى أن أخذ صلاح الدين الأيوبي دمشق من الأتابكة عام (٥٧٠هـ/١١٧٤م) فقام باستدعائه إلى دمشق وكان قد جاوز الثمانين من

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٢٥

(٢) المرجع نفسه، ص٢٦

(٣) طلائع بن زريك، أبو الغارات وزير الفائز والعاضد، كانت بينه وبين أسامة مودة وصداقة ومراسلات شعرية أودع أسامة قسماً منها في كتاب المنازل والديار وذكر صاحب الروضتين جملة منها، انظر: أبو شامة، شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم (ت٦٦٥هـ/١٢٦٦م)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٤٧، ج١، ص١١٥-١٢٠

(٤) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٤٣

(٥) المرجع نفسه، ص٤٥

عمره فأكرمه أيما إكرام وجعله من خواصه ومستشاريه، ومكث أسامة بدمشق حتى وافته المنية في ليلة الثلاثاء ٢٣ رمضان (٥٨٤هـ)، الموافق السادس من نوفمبر (١١٨٨م).

وقد كان لهذه العوامل مجتمعه أثر كبير في صقل شخصية أسامة بن منقذ وتهذيب أخلاقة وتنمية فكره ومهاراته.

ويمكن أن نستخلص من كتابه الإعتبار مجموعة من الصفات التي تحلى بها أسامة بن منقذ وقد جاءت على النحو التالي: على النحو التالي: الشجاعة والإيمان والعلم والذكاء والتواضع وغيرها.

أ- الشجاعة: تمثل حياة أسامة في الشباب مرحلة الفروسية والبسالة فقد واجه مع رفيق له ثمانية من فرسان الإفرنج فهزموهم[١] وتبدو شجاعته أيضاً من حديثه عن اشتراكه بنفسه في القتال، وقد ورد هذا في كثير من المواضع كقوله: "ثم إن الإفرنج وقفوا على بعد ساعة،ثم رجعوا لنا، وجاءونا بالفارس والرجل والخيم يريدون منازلة عسقلان، فخرجنا إليهم، وقد خرج راجل عسقلان، ومضيت إلى الإفرنج وقد حطوا خيامهم ليضربوها، فاختلطنا بهم وإعجلناهم عن طيّ خيامهم، فرموها كما هي منثورة وساروا راجعين"[٢] ويبدو أن قوماً من المسلمين أغرتهم هذه الهزيمة، فلحقوا بالصليبين، ولكنهم عطفوا عليهم فهزموهم، مما دفعهم إلى لوم أنفسهم بقولهم: "كان ابن منقذ أخبر منا،قال لنا ارجعوا ما فعلنا حتى انهزمنا"[٣].

كما أشاد بشجاعته كثير من القادة وفي ذلك صلاح الدين الغسياني التركي حاكم حماة ليرد عسكر دمشق، قائلا: "والله مايردهم إلا أنت"[٤] وغيرها من الوقائع والأحداث التي تؤكد مدى شجاعته، غير ان أسامة كان يحترز في بعض الأحيان حيث أورد أن على الإنسان ألا يثق بشجاعته، ولا يعجب بإقدامه حتى لا يقع في أمر لا يستطيع الإنفكاك منه[٥].

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٨٠

(٢) المرجع نفسه، ص١٩

(٣) المرجع نفسه، ص١٩

(٤) المرجع نفسه، ص١٢١

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٨١

ب.الإيمان: وتجلت هذه الصفة بشكل مباشر من خلال حديثه عن الصراع بين المسلمين والإفرنج الكفار متمنياً الموت في سبيل الله في كثير من المواضع وفي حديثه وإيمانه بالقدر وقد ورد هذا بقوله: "علمت أن ركوب أخطار الحروب، لا ينقص مدّة الأجل المكتوب[١]، وقوله: "فلا يظنُّ أن الموت يقدّمه ركوب الخطر، ولا يؤخّره شدَّة الحذر،ففي بقائيي أوضح معتبر"[٢].

ج. الذكاء: فقد تجلى ذكاؤه في تخطيطه للقتال والتخلص من المواقف العصيبة، أو في الصيد ومواجهة السباع، كما تبدىّ هذا أيضا من تقديم الحكام له، واستشارتهم إياه وفي هذا ما سرده تحت عنوان "الخليفة يحرش ابن عباس على أبيه" "..فابتدأ يفاتحني بشيء مما كان فيه ليبصر ما عندي في ذلك، ويريد بي أقوّي على سوء قد حمله عليه الظافر"[٣].

وأورد ما يدل على حنكته وقدرته السياسية ومثل ذلك ما ذكره تحت عنوان "أسامة بمهَّمة سياسية تجاه رضوان"[٤].

د. التواضع: وقد ظهرت هذه الصفة بمجمل تعاملاته مع من حوله وتجسدت بحديثه ومعاملته لعجوز كانت خادمة عنده فقد كان يناديها أمي[٥].

٣.١.٢ مناقب الفرسان

نقل أسامة بن منقذ في كتابه صوراً حيّة للبطولات الإسلامية في مواجهة الأخطار المحدقة بديار الشام من الإفرنج وسواهم، فعلى الرغم من بعد المسافة الزمنيّة بين مشاهد البطولة التي عاينها أسامة وبين زمن سرده،فإن قوّة تأثيرها في نفسه جعلها حاضرة ماثلة أمام ناظريه، فروى تفاصيلها الدقيقة من حيث زمن وقوعها ومكانه، وأسماء الفرسان، وما كان يمور في أنفسهم من انفعالات، وما يصدر عنهم من

---

(١) المرجع نفسه، ص٢١١

(٢) المرجع نفسه، ص٦٩

(٣) المرجع نفسه، ص٢٤

(٤) المرجع نفسه، ص٣٨

(٥) المرجع نفسه، ص٢٤١

أصوات ونداءات، وما تعرضّوا له من طعن وضرب، وموضع الضربة وهيئتها ومدى تأثيرها في نفس متلقّيها.

ونقف في الكتاب عند أسماء كثير من الفرسان المسلمين، من ذلك ما رواه عن أنفة الفارس جمعه، وهو من بني نمير[١] كما تحدث عن فارس آخر يدعى ندى بن تليل القشيريّ[٢] ووصف شجاعته في إحدى الوقعات، ووصف الطعنة التي أصابته، وتحمله لها[٣] ومن الفرسان المعدودين الذين حكى أسامة جانباً من بطولاتهم حمدات الكرديّ الذّي أصرّ على الرغم من كبر سنّه على جهاد الإفرنج، ومنهم نمير العلاّزوري "راجل شجاع أيد"ومحمد بن سرايا "وهو شاب شديد أيد"[٤] وقد شارك بعض العلماء المسلمين في جهاد الإفرنج، وروى أسامة بطولة اثنين منهم، "فعندما قصد الغزاة دمشق أهلها لملاقاتهم "وفي جملتهم الفقيه الفندولايّ والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحوليّ...فلمّا قاربهم قال الفقيه لعبدالرحمن: ما هؤلاء الروم؟. قال: بلى، قال: فإلى متى نحن وقوف ؟قال:سر على اسم الله تعالى فتقدما حتّى ،رحمهما الله،في مكان واحد"[٥] ويطول بنا المقام لو تتبعنا أخبار الفروسيّة الإسلامية في كتاب الإعتبار، وهي في جملتها تصوّر حقيقة الاستعداد الحربيّ لدى المسلمين في ديار الشام، وهم يواجهون الخطر الصليبيّ آنذاك.

ومن خلال المدارسة للكتاب قدر لي أن أستخلص مجموعة من المناقب التي أوردها أسامة بن منقذ وامتاز بها الفرسان وقد جاءت على النحو التالي:

١. نبل الأخلاق: ويندرج تحتها:

أ. حماية من يطلب الحماية دون مقابل: وقد أورد هذا تحت عنوان "أسامة يخلّص زنجياً" إذ يقول: "وعجيب ما رأيت في ذلك اليوم ان رجلاً من السودان الذين كانوا في العملة انهزم إلى علو داري، والرجال بالسيوف خلفه، فأشرف على القاعة من ارتفاع

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٨٨،٨٧،٨٣،٨٠،٧٦،٧٤،٦١،٤٧،٤٦

(٢) المرجع نفسه، ص٥٤-٥٥

(٣) المرجع نفسه، ص٥٤

(٤) المرجع نفسه، ص٩٩

(٥) المرجع نفسه، ص١٢٢

عظيم، وفي الدار شجرة نبق كبيرة، فقفز من السطح إلى تلك الشجرة، فثبت عليها، ثم نزل ودخل من كمّ مجلس قريب منه فوطئ على منارة نحاس، فكسرها ودخل إلى خلف رحل في المجلس اختبأ فيه واشرف أولئك الذين كانوا خلفه فصحت عليهم واطلعت إليهم الغلمان دفعوهم ودخلت إلى ذلك الأسود فنزع كساء كان عليه وقال: خذه لك. قلت: أكثر الله خيرك ما احتاجه، وأخرجته وسيَّرت معه قوماً من غلماني فنجا[1].

ومن هذا القبيل أورد أيضاً: "غريب يفك أسير "

"ومن ألطاف الله تعالى أن ملك الروم لَّما نزل على شيزر في سنة (٥٣٢هـ) خرج من شيزر جماعة من الرجّالة للقتال فأقتطعهم الروم فقتلوا بعضاً وأسروا بعضاً، فكان في جملة من أسروا زاهد بني كردوس من الصالحَّية من مولدي محمود بن صالح[2] صاحب حلب، فلّما عاد الروم كان معهم مأسوراً، فوصل القسطنطينية فهو في بعض الأيَّام فيها إذ لقيه إنسان فقال: أنت أبن كردوس؟ قال: نعم. قال: سر معي أوقفني على صاحبك، فسار معه حتى أراه صاحبه .فقاوله على ثمنه حتى تقرّبينه وبين الرومي مبلغ الرضا فوزن له الثمن وأعطى إبن كردوس نفقه، وقال: تبلغ بها إلى أهلك وامض في دعة الله تعالى: فخرج من القسطنطينية وتوصَّل إلى أن عاد إلى شيزر، وذلك من فرج الله تعالى وخفيّ لطفه، ولا يدري من الذي شراه وأطلقه" [3].

ب. رد الجميل ومقابلة لإحسان بالإحسان والوفاء لصاحب المعروف:

وقد أورد ذلك تحت عنوان "كردي يقاتل لجميل له".

"ومن الناس من يقاتل للوفاء، فمن ذلك أن رجلاً من الأكراد يقال له فارس، وكان كاسمه فارساً وأيّ فارس، فحظر أبي وعمّي – رحمها الله – وقعة كانت بينهما وبين سيف الدولة خلف بن ملاعب[4] عمل عليهم فيها وغدر بهم، وقد حشد وجمع وهم غير

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٠

(٢) المرداسي، محمود بن صالح، حكم حلب من سنة ٤٥٧هـ إلى سنة ٤٦٧هـ، انظر: ابن العديم، بغية الطلب تاريخ حلب، ج٢، ص٩

(٣) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١١٩

(٤) المرداسي، محمود بن صالح، حكم حلب من سنة ٤٥٧هـ إلى سنة ٤٦٧هـ، انظر: ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، ج٢، ص٩

متأهبين لما جرى وسبب ذلك أنه راسلهم وقال: نمضي إلى اسفونا[١] وفيها الإفرنج تأخذنا، فسبقه أصحابنا إليها وترجَّلوا وزحفوا إلى الحصن نقبوه وهم في القتال وابن مُلاعب وصل، فأخذ خيل من كان ترجَّل من أصحابنا ووقع القتل بينهم ،بعد ما كان للإفرنج، واشتد بينهم القتال فقاتل فارس الكرديّ قتالاً عظيماً وجُرح عدّة جراح، وما زال يقاتل ويجرح حتى أثخن بالجراح. وانفصل القتال .فاجتاز به أبي وعمّي، رحمها الله وهو محمول بين الرجال فوقفا عليه وهنأه بالسلامة. فقال: "والله ما قاتلت أُريد السلامة، لكن لكم عليّ الجميل وفضل كثير، وما رأيتكم في شدة مثل هذا اليوم فقلت: أُقاتل بين أيديكم وأجازيكم عن جميلكم وأُقتل قدّامكم"[٢].

ج. **فعل الخير والعمل على كسب الثواب ومنها اقتداء الأسرى،** وقد أورد ذلك تحت عنوان "أسامة يفتدي الأسرى".

"كنت أتردد إلى ملك الإفرنج في صلح بينه وبين جمال الدين محمّد بن تاج الملوك[٣] – رحمه الله – ليد كانت للوالد – رحمه الله – على بغدوين[٤] الملك والد الملكة امرأة الملك فلك بن فلك، فكان الإفرنج يسوقون أساراهم إليّ لأشتريهم، فكنت اشتري منهم من سهّل الله تعالى خلاصه"[٥].

د. **حماية المرأة وصونها:** وقد أورد أسامة تحت عنوان "عم أسامة يفك أسر مسلمة"

"وكان ممن أسر في جملة من أسر في ذلك اليوم امرأة كانت من أصل جيّد من العرب وصفت لعمي عزّ الدين أبي العساكر سلطان –رحمه الله– قبل ذلك وهي في بيت أبيها، فأرسل عمّي عجوزاً من أصحابه تبصرها فعادت تصفها وجمالها وعقلها أمَّا

---

(١) حصن اسفونا: كان قرب معرة النعمان بالشام افتتحه محمود بن نصر بن صالح بن مرداس الكلابي، الحموي، معجم البلدان، ج١، ص١٧٩

(٢) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٢٣

(٣) تاج الملوك بوري طغتكين امير دمشق (٢٤حزيران ١١٣٩–٢٠آذار١١٤٠). وهو اخو شهاب الدين محمود. انظر: منقذ، كتاب الإعتبار، الحاشية، ص١٠٥

(٤) Baldwin الثاني ملك اورشليم والد Melisende التي تزوجت fulk الخامس سنة ١١٢٩

(٥) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٠٥

لرغبة بذلوها لها وأما أروها غيرها، فخطبها عمّي وتزوّجها فلمَّا دخلت عليه رأى غير ما وصف له منها، ثم هي خرساء .فوفاها مهرها وردّها إلى قومها، فأسرت من بيوت قومها ذلك اليوم، فقال عمّي: ما ادع امرأة تزوجتها وانكشفت عليّ في أسر الإفرنج؛ فاشتراها – رحمه الله– بخمس مائة دينار وسلَّمها إلى أهلها"[1].

٢. **صدق العقيدة: ويندرج تحتها:**

أ. **القتال للدين لا للدنيا:** وقد أورد تحت عنوان "زاهدان يقاتلان للجنة"

"ومن الناس من يقاتل كما كان الصحابة ،رضوان الله عليهم ،يقاتلون للجنة لا لرغبة ولا لسمعه ومن ذلك أن ملك الألمان الإفرنجي، لعنه الله لَّما وصل الشأم اجتمع إليه كلٌ من بالشأم من الإفرنج، وقصد دمشق، فخرج عسكر دمشق وأهلها لقتالهم وفي جملتهم الفقيه الفندلاويّ والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحولي رحمهما الله. وكانا من خيار المسلمين، فلمَّا قاربوهم قال: الفقيه لعبدالرحمن "ما هؤلاء الروم؟ قال: بلى. قال فإلى متى نحن وقوف؟ سر على اسم الله تعالى "فتقدّما قاتلا حتى قتلا – رحمهما الله – في مكان واحد[2].

ب.**الإيمان بالقدر:** وقد أورد ذلك تحت عنوان "تأملات أسامة بشأن طول العمر "فلا يظن ظان أن الموت يقدّمه ركوب الخطر ولا يؤخره شّدة الحذر ،ففي بقائي أوضح معتبر، فكم لقيت من الأهوال وتقحمَّت المخاوف والأخطار، ولاقيت الفرسان، وقتلت الأسود، وضربت بالسيوف، وطعنت بالرماح، وجرحت بالسهام والجروح وأنا من الأجل في حصن حصين – إلى أن بلغت التسعين فرأيت الصحَّة والبقاء كما قال –صلى الله عليه – "كفى بالصحة داءً"[3].

٣. **الشجاعة والإقدام والمبادرة لتنظيم الحملات العسكرية ويندرج تحتها:**

أ. **القوة والفروسية فالفارس يفضل الموت على صهوة جواده من الموت على فراشه:**

وأورد أسامة تحت عنوان " وثالثة تنفذ في صدر إفرنجي"

([1]) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٩٣

([2]) المرجع نفسه، ص١٢٢

([3]) المرجع نفسه، ص٦٣

"....ثم جاء إلى عمي وقال :يا أمير والله ما تطاوعني نفسي على القعود في البيت، وقتلي على فرسي أشهى إلي من موتي على فراشي قال: الأمر لك وأمر بردّ ديوانه كما كان، فما مضى إلا أيام قلائل حتى أغار علينا السّرداني صاحب طرابلس[١]، ففزع الناس إليهم، وحمدات في جملة الروع ،فوقف على رقعة من الأرض مستقبل القبلة فحمل عليه فارس من الإفرنج من غربيّه فصاح إليه بعض أصحابنا ياحمدات: فالتفت رأى الفارس قاصده، فرد رأس فرسه شمالاً ومسك رمحه بيده وسددّه إلى صدر الإفرنجي فطعنه نفذ الرمح منه فرجع الإفرنجي متعلقاً برقبة حصانه في آخر رمقه"[٢].

وأورد أيضاً في هذا القبيل "ركوب الأخطار لا ينقص الأعمار"

"...فاني رأيت يوم تقاتلنا نحن والإسماعيليَّة في حصن شيزر معتبراً يوضح للشجاع العاقل، والجبان الجاهل، أن العمر موَّقت مقدر لا يتقدم آجلة ولا يتأخر، وذلك أننا بعد فراغنا ذلك اليوم من القتال صاح إنسان من جانب الحصن الرجال وعندي جماعة من أصحابي معهم سلاحهم، فبادرنا إلى الذي صاح، فقلنا مالك؟ فقال حسُّ الرجل هاهنا فجئنا إلى اصطبل خالٍ مظلم فدخلناه فوجدنا فيه رجلين معهما سلاحهما، فقتلناهما. ووجدنا رجلاً من أصحابنا مقتولاً وهو على شيء فرفعناه ووجدنا تحته رجلاً من الباطنية قد تسجَّى ورفع المقتول على صدره" [٣].

ب. الأنفة وحمل النفس على الأخطار والمهالك صوناً لسمعتهم وفروسيتهم:

وأورد ذلك تحت عنوان: "شرف الفارس جمعه" "فمن ذلك ما شاهدته من أنفة الفرسان وحملهم نفوسهم على الأخطار، أننا كنا التقينا نحن وشهاب الدين محمود ابن قراجا صاحب حماة ذلك الوقت، وكانت الحرب بيننا ما تغبّ، والمواكب واقفه والطراد بين المتسرعة فجاءني رجل من أجنادنا وفرساننا المعدودين يقال له جمعة من بني نمير، وهو يبكي فقلت له: مالك يا ابو محمود[٤] ؟ هذا وقت بكاء؟ قال: طعنني

---

(١) william Jourdagne هو كونت cerdagne

(٢) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٦٣

(٣) المرجع نفسه، ص٢٠٩

(٤) المرجع نفسه، ص٩٣

سرهنك ابن أبي منصور قلت: وإذا طعنك سرهنك أي شيء يكون؟ قال: ما يكون شيء إلا يطعنني مثل سرهنك! والله أن الموت أسهل عليّ من أن يطعنني لكّنه استغفلني واغتالني "فجعلت أُسكته واهّون الأمر عليه فردّ رأس فرسه راجعاً. فقلت: إلى أين يا أبا محمود؟ قال: إلى سرهنك والله لأطعننَّه أو لأموتن دونه"(١).

٤. الاستعداد النفسي والجسدي وتجهيز العدة والعتاد دوماً:

وأورد هذا تحت عنوان" أسامة على استعداد دائم للقتال يقول: "قلت اذكرني ذكر الخيل بأمر جرى لي مع صلاح الدين محمدَّ بن أيُّوب الغسانيّ، رحمه الله.وذلك أن ملك الأمراء أتابك زنكي رحمة الله، نزل على دمشق في سنة(٥٣٠هـ) بأرض داريًّا(٢) وقد راسله صاحب بعلبكّ جمال الدين محَّمد بن بوري بن طغدكين(٣)-رحمة الله – في الوصول إليه، وخرج من بعلبكّ متوجهاً إلى خدمة أتابك، فبلغه أن عسكر دمشق خرج يريد أخذه، فأمر صلاح الدين أن نركب للقائه ودفع الدمشقّيين عنه .فجاءني رسوله في الليل يقول: اركب وخيمتي إلى جانب خيمته، وهو قد ركب ووقف عند خيمته، فركبت في الوقت فقال: كنت قد علمت بركوبي. قلت: لا والله، قال: الساعة نفَّذتُّ إليك فركبتُ في الوقت، قلت:يا مولاي حصاني يأكل شعيره، ويلجمه الركابيّ ويقعد وهو في يده على باب الخيمة، وأنا ألبس عدّتي وأتقلَّد سيفي وأنام. فلمَّا جاءني رسولك ما كان لي ما يعوّقني(٤).

فالفارس حريص على تفقد عدة حصانه: وأورد ذلك تحت عنوان "أسامة يجرح بإهمال الركابي"

قال: "والمحارب ولو أنه الأسد أتلفه وأعجزه اليسير من العوائق كما أصابني على حمص خرجت وقتل حصاني وضربت خمسين سيفاً – كل ذلك لنفاذ المشيئة ثم لتواني الركابي

---

(١) شهاب الدين محمود بن قراجا صاحب حماة، توفي سنة ٥١٧هـ من سهم مسموم أصابه في حصار أفاميه. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن ابي الكرم الشيباني الجزري، (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، الكامل بالتاريخ، تحقيق: أبو الفداء عبد الله القاضي، ط٢، دارالكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥، ج١٠، ص٦١٨

(٢) احدى قرى الغوطة على بعد أربعة أميال من دمشق. ابن منقذ، كتاب الإعتبار، الحاشية، ص١٢٨

(٣) خلّف جمال الدين اباه تاج الملوك بوري في إمارة بعلبك لدن وفاته. المرجع نفسه، الحاشية، ص١٢٨

(٤) المرجع نفسه، ص١٢٩

في تركيب عنان اللجام فانه عقده في الباشات ولم يشقه فلمّا جذبته أُريد الخروج من بينهم انحلَّ العنان من عقدته في الباشات فنالني ما نالني"[١].

٥. **الفطنة والذكاء وسرعة البديهة وأخذ جانب الحيطة والحذر:**

وهي من أهم الصفات التي يجب أن يتصف بها الفارس فقد أشارأسامة بن منقذ أن الإفرنج قد اتصفوا بالشجاعة والدهاء "والإفرنج خذلهم الله ما فيهم فضيلة من فضائل الناس، سوى الشجاعة، ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلا للفرسان" فكان على الفارس العربي أن يكون أشد منه حيطة وفطنة. وفي هذا يورد أسامة ابن منقذ "ورأيت من إقدام الرجال ونخواتهم في الحرب أنَّا أصبحنا وقت صلاة الصبح رأينا سرية من الإفرنج نحواً من عشرة فوارس، جاءوا إلى باب المدينة قبل أن يفتح .فقالوا للبوابّ أيُّ شيء اسم هذا البلد؟ والباب خشب بينهما عوارض وهو داخل الباب. قال: شيزر فرموه بنشاَّب من خلل الباب ورجعوا وخيلهم تخبّ بهم. فركبنا فكان عميّ رحمه الله أول راكب وأنا معه، والإفرنج رائحون غير منزعجين يلحقنا من الجند نفر. فقلت لعمّي: على أمرك آخذ أصحابنا واتبعهم أقلعهم وهم غير بعيدين قال: لا (وكان أخبر مني بالحرب) في الشام افرنجي لا يعرف شيزر؟ هذه مكيدة[٢] ونرى أيضا أهمية الفطنة في الحرب والذكاء فقد أشار اسامة بمجمل رواياته أنّ عمه كان يتفقد حضور ذهنه "فقد كان عمي عز الدين – رحمه الله – يتفقَّد مني حضور فكري في القتال"[٣].

وأورد أيضا ما يشير إلى أهمية الفطنة والذكاء ودورهما في تسير المعارك ونتائجها فقد كان للحيلة الأثر الكبير بالتحكم بنتيجة المعركة بواقعة كفر طاب وإيهام الإفرنج بكثرة العدد والنصر بالخديعة فقد أورد ذلك بعنوان "الخدعة في الحرب"

يقول: " فقال له عمي: لولا وقوفه في عشرة فوارس مقابل خيل كفرطاب ورجالها كانوا أخذوا هذا العالم كلَّه فكان الترهيب والتخيير للإفرنج في ذلك الوقت أنفع من قتالهم لأننا كنَّا في قلَّة وهم في جمع كثير"[٤].

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٨٤

(٢) المرجع نفسه، ص٧٣

(٣) المرجع نفسه، ص١٢٩

(٤) المرجع نفسه، ص١٩٤

٦. العمل على اكتساب الخبرات القتالية وتوسيع المدارك الحربية حتى وأن كان من العدو:

وسرد ما يشير إلى إعجابه بشجاعة الإفرنج بالرغم من كونهم خصمه وأورد ذلك تحت عنوان"منزلة الفارس عند الإفرنج"

إذ يقول: "والإفرنج – خذلهم الله – ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة، ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلا الفرسان، ولا عندهم ناس إلا الفرسان فهم أصحاب الرأي وأصحاب القضاء والحكم"(١)

ووصف شجاعة أحد فرسانهم بقوله: "وكان بأفأمية(٢) فارس من كبار فرسانهم يقال له: بدرهوا"(٣).

وأورد أيضاً تحت عنوان: " ثم يهزمنا رويجل"

"فوقفنا على ذلك الشرف ننظر الحصن، فما راعنا إلا رويجل قد طلع علينا من ذلك السند الصعب معه قوس ونشَّاب، فرمانا، ولا سبيل لنا إليه فهزمنا، والله ما صدقنا نتخلَّص منه وخيلنا سالمة....وانصرفنا وفي قلبي من ذلك الراجل الذي هزمنا حسرة الذي ما كان لنا إليه سبيل، وكيف هزمنا راجل واحد وقد هزمنا ثمانية فرسان من الإفرنج"(٤).

٧. المواقف المشرفة في تحمل المسؤولية ويندرج تحتها مايلي:

أ. الجرأة في إسداء النصح وعدم التخوف في إسداء الرأي: وقد أورد ذلك تحت عنوان "عبَّاس يفرّ إلى الشام" عندما دخل على العباس إحدى غلمانه ويطلق عليه عنتر الكبير فأبدى له نصيحة بقوله:يا مولاي أيّ شيء مرجو من مسيرنا إلى الشام؟ خذ خزائنك وأهلك وغلمانك ومن تبعك وسر بنا إلى الإسكندرية، نحشد من هناك ونجمع، ونرجع إلى ابن رزّيك ومن معه، فإنَّ نصرنا عدتَّ إلى دارك والى ملكك. وإن

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٨٣

(٢) مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص. انظر: الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٢٢٧.

(٣) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٨٧

(٤) المرجع نفسه، ص٧٥

عجزنا عنه عدنا إلى الإسكندرية إلى بلد نحتمي فيه ويمتنع على عدونّا، فنهره وخطّأ رأيه، وكان الصوابُ معه[١].

وأورد أيضا تحت "بالفصاد ينجو جريح "

"وأصاب ذلك اليوم رجلاً من أصحابنا الشاميين جراح كثيرة فجاءني أخوه وقال: أخي تالف، قد وقع فيه كذا وكذا جرحُ سيوف وغيرها، وهو مغمور ما يفيق "قلت ارجع إفصده[٢] قال: قد خرج منه عشرون رطل دم، قلت: إرجع إفصده، فإنا اخبر منك بالجراح، وليس له دواء غير الفصاد، فمضى غاب عّني ساعتين ثم عاد وهو مستبشر، قال: أنا فصدته، وهو أفاق وجلس واكل وشرب وذهب عنه البؤس قلت: الحمد لله! لولا أني جرّبت هذا في نفسي عدّة مرار ما وصفته لك"[٣].

ب.**العمل على إخماد الفتن الداخلية ورفض التأمر:** وأورد هذا تحت عنوان "الخليفة يحّرش ابن عَّباس على أبيه" فقلت يا مولاي، لا يستزلّك الشيطان وتنخدع لمن يغرك فما قتل والدك مثل قتل العادل، فلا تفعل شيئاً تلعن عليه إلى يوم القيامة "فأطرق، وقاطعني الحديث، ونمنا فاطلع والده على الأمر، فلاطفه واستماله، وقرر معه قتل الظافر[٤].

٨. **حسن اختيار أفراد الخاصة والمرافقين:**

وقد أورد ذلك تحت عنوان "غلام يفدي مولاه"

"وفي ذلك اليوم أصاب غلاماً كان لعمي عزّ الدولة أبي المرهف نصر –رحمه الله– يقال له موفَّق الدولة شمعون طعنة عظيمة التقاها دون عمّي عزّ الدين أبي العساكر سلطان، رحمه الله. واتفق أن عمّي أرسله رسولا إلى الملك رضوان بن تاج، الدولة تتش إلى حلب.فلما حضر بين يديه قال لغلمانه: مثل هذا يكون الغلمان وأولاد الحلال في حق مواليهم"[٥].

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٣٠

(٢) طريقة لعلاج بعض الامراض، وهي معروفة ويتم ممارستها في وقتنا الحاضر باسم الحجامة

(٣) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٤٢

(٤) المرجع نفسه، ص٢٤

(٥) المرجع نفسه، ص٦٩

وأورد أيضاً تحت عنوان "أسامة وجمعة يهزمان ثمانية فرسان" يقول:" ومع هذا فلاّ يثق إنسان بشجاعته ولا يعجب بإقدامه. فوالله لقد سرت مع عمي رحمه الله، أغرنا على أفاميه، واتفّق أن رجالها خرجوا ليسّيروا قافلة فسّيروها، وعادوا، ونحن لقيناهم فقتلنا منهم قدر عشرين رجلاً. ورأيت جمعة النُّميري -رحمه الله- وفيه نصف قنطارية قد طعن بها في لبد السرج وخرج الرمح من البدّاد إلى فخذه،ونفذ إلى خلفه، فانكسرت القنطارية فيه. فراعني ذلك. فقال: لا بأس، أنا سالم. ومسك سنان القنطارية وجذبها منه، وهو وفرسه سالمان. فقلت: يا أبا محمود، أشتهي أتقرّب من الحصن أبصره. قال: سر. فرحت أنا وهو نُخبّ فرسينا، فلمَّا أشرفنا على الحصن إذا من الإفرنج ثمانية من الفرسان وقوف على الطريق وهي مشرفة على الميدان من ارتفاع لا ينزل منه إلا من تلك الطريق فقال لي جمعة "قف حتى أريك ما أصنع فيهم. قلت: ما هذا إنصاف، بل نحمل عليهم أنا وأنت. فحملنا عليهم فهزمناهم ورجعنا نحن نرى انَّا قد فعلنا شيئاً ما يقدر يفعله غيرنا، نحن اثنان هزمنا ثمانية فرسان من الإفرنج"[١].

"مروءة مكار نصراني"........وإذا قد نزل من الجبل خلق عظيم من الحراميَّة يريدون أخذنا. فلقيهم يونان وقال: "يا فتيان موضعكم! أنا يونان، هؤلاء في خفارتي. والله ما فيكم من يتقرّب منهم؟ فردّهم والله جميعهم عنَّا وما أكلوا من عندنا رغيف خبز. ومشى معنا يونان حتى أمنا ودعنا وانصرف"[٢].

٩. حب المغامرات والتدرب المستمر على القتال وعدم التخاذل والاستكانة :

ومن ذلك حب الصيد، وفي هذا أورد "وشاهدت من الصيد مع هؤلاء الأكابر شيئاً كثيراً ما اتَّسع لي الوقت لذكره مفصلاً. وكانوا قادرين على ما يحاولونه من صيد وآلته وغيره"[٣]

١٠. الاعتداد بالنفس وافتخار الفارس بأصله وقومه:

وقد أورد ذلك بقوله لإحدى ملوك الإفرنج "أنا فارس من جنسي وقومي"[٤].

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٢٠

(٢) المرجع نفسه، ص٢٢٥

(٣) المرجع نفسه، ص٦٥

(٤) المرجع نفسه، ص١٢٥

١١. **المعرفة الجيدة بالخيول وصفاتها وتربيتها والاعتناء بها:** ومن ذلك ما أورده تحت عنوان "الصبور في الخيل" وعلى ذكر الخيل ففيها الصبور كالرجال وفيها الخوار.فمن ذلك أنه كان في جندنا رجل كرديّ يقال له كامل أو المشطوب فيه الشجاعة والدين والخير –رحمه الله– وله حصان أدهم أصم مثل الجمل، فالتقى هو فارس من الإفرنج فطعن إفرنجي حصانه في موضع القلادة فمالت رقبته من شدة الطعنة وخرجت القنطارية من أصل رقبة الحصان فضربت فخذ كامل المشطوب وخرجت من الجانب الآخر، وما تزعزع الحصان من تلك الطعنة ولا فارسه، فكنت أرى ذلك الجرح الذي في فخذه بعدما اندمل وختم وهو كأكبر ما يكون من الجراح، وسلم الحصان وعاد حضر عليه القتال، فالتقى هو وفارس من الإفرنج، فطعن الحصان في جبهته خسفها ولم يتزعزع، وسلم من تلك الطعنة وأدخلها في جبهة الحصان في موضع الجرح وسعها[١].

وأورد أسامة بن منقذ، ما يصف ضعف بعض الخيول أيضاً "وأمَّا خّورها وضعفها على الجراح فان عسكر دمشق نزل على حماة، وهي لصلاح الدين محَّمد بن أيُّوب الغسيانّي ودمشق لشهاب الدين محمود بن بوري بن طغدكين، وأنا بها وزحفوا إلينا في جمع كثير، ووالي حماة شهاب الدين أحمد بن صلاح الدين وهو على تلّ مجاهد فجاءه الحاجب غازي التَّلي فقال: قد انتشرت الرجَّالة والخوذ تتلامع بين الخيام، والساعة يحملون على الناس يهلكونهم فقال: امض ردّهم فقال: والله ما يردّهم إلا أنت أو فلان يعنيني فقال لي: تخرج تردّهم فقلعت زرديَّة كانت على غلام لي لبستها وخرجت رددت الناس بالدبوس، وتحتي حصان أشقر من أجود الخيل وأتلعها. فلمَّا رددت زحفوا إلينا وما برّا من سور حماة فارس غيري: منهم من دخل المدينة وأيقنوا أنهم مأخوذون، ومنهم من هو مترجّل في ركابي، فإذا حملوا علينا أخرتَّ الحصان بعنانه وأنا مستقبلهم، وإذا عادوا مشيت خلفهم سترة لضيق المجال وازدحام الناس، فضربت حصاني نشَّابة في ساقه خمشته. فوقع بي وقام، ووقع وأنا أضربه حتى قال

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٢٦

لي الرجال الذين في ركابي: ادخل إلى الباشورة اركب غيره فقلت: والله ما أنزل عنه "فرأيت من ضعف ذلك الحصان ما لم أره من غيره"[١].

١٢. سعة الاطلاع ومعرفة الجديد من أدوات القتال والدراية بأماكن الحصون والفرق والوظائف العسكرية: ونجد أسامة قد أورد عدداً لا بأس به من المصطلحات العسكرية ومنها؛ الباشورة[٢] الباله[٣] البرك[٤] البطسه[٥] البوق[٦] البيرق[٧] الترس[٨] والتركش[٩] وغيرها.

أما الوظائف العسكرية فقد أورد عددا من الأَلفاظ الخاصة بها منها: أتابك[١٠] صبيان الخاص[١١] أصحاب النوبة[١٢] أسباسلار[١٣] وغيرها. وكما نلحظ أن أسامة لم يغفل عن ذكر عدد من الفرق العسكرية الفاطمية منها: الريحانية، والجيوشية، والإسكندرانية، والفرحية[١٤].

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٢٥

(٢) بناء ذو منعطفات أمام كل باب أو خلفه، يقصد به تعويق هجوم العساكر على الباب وقت الحصار. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر، (١٩٨٥)، المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والأثار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ج١، ص٣٧٧. ابن منقذ، كتابالإعتبار، هامش، ص١٢٩

(٣) (بالا) التركية وهي عبارة عن عصا فيها زجتكون مع الصيادين. ابن منقذ، كتاب الإعتبار، الهامش، ص٢٧٦.

(٤) المتاع والسلاح وكل ما يلزم المقاتل من أمور مادية. دوزي، تكملة المعاجم، ج١، ص٣٠٤

(٥) وهي سفينة كبيرة تستخدم في الحروب واللفظة منقولة عن الأسبانية. اللبدي، نزار، المصطلح الفكري في كتاب الإعتبارلأسامة بن منقذ دراسة معجمية، مجلة إربد للبحوث والدراسات، المجلد٦، العدد١، ٢٠٠٣، ص٣١

(٦) وهو الذي ينفخ فيه ويزمر وبه يعلن النفير. ابن منظور، لسان العرب، باب(القاف)، فصل(الباء)، مادة(بوق).

(٧) تركية، تعني السلاح بصورة عامة. ابن منقذ، كتاب الإعتبار، الهامش، ص١٢٤

(٨) وهو ما يتوقى به من السلاح وجمعه أتراس، وتراس، وترسه، وتروس. ابن منظور، لسان العرب، باب(السين)، فصل(التاء)، مادة(ترس).

(٩) لفظ فارسي، وجمعه تراكيش، ومعناه الجعبة التي توضع فيها السهام. نرينهارت، دورزي، تكملة المعاجم العربية، ترجمة: محمد سليم النعيمي، دار الشؤون الثقافية، بغداد. ١٩٨٢، ج٢، ص٣٨

(١٠) لفظ تركي يعني الأمير الوالد، وهي من ألقاب أمير الجيوش. القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد عبدالله(٨٢١هـ/١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧، ج٦، ص٣

(١١) حرس السلطان أو الخليفة الخاص من الغلمان. انظر: المقريزي، المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والأثار، ج٣، ص١٩٨

(١٢) يفهم من كلام أساة أنهم اللذين تبدأ دورتهم في مباشرة الحراسة، وحفظ الأمن.

(١٣) من ألقاب أرباب السيوف، ويعني مقدم العسكر. ابن منقذ، كتاب الإعتبار، هامش، ص١٠٧

(١٤) وقد ذكر هذه الفرق العسكرية، المقريزي، الخطط،ج٢، ص٣

ولم يغفل عن الإشارة إلى القلاع العسكرية الصليبية التي أقامها الصليبيون حول مدينة عسقلان لتشديد الخناق عليها، فكانت كما يذكر أسامة"كلها متقاربة، وفيها خيل كثيرة للإفرنج لمغاداة عسقلان ومراوحتها[1].

هذا مجمل ما وضعه أسامة بن منقذ في كتابه الإعتبار عن أخبار الفرسان ومناقبهم قدم لنا من خلال ما سرد تصوراً هاما وموضوعياً عن الفارس وصفاته وسلوكياته وما يجب أن يمتاز به بكل حيادية ومصداقية.

٤.١.٢ الاعتقاد بالكرامات ومناقب العلماء الزاهدين:

نشأ أسامة في بيئة زاهدة عالمة، فقد كان والده مثالاً يحتذى به بالعلم والزهد، وقد عرف بعلمه إذ كان يقضي وقته بنسخ كتاب الله وقد أورد ابن الجوزي "بقوله: كان مرشداً عالماً بفنون العلوم والآداب، رجلاً صالحاً كثير التلاوة للقرآن الكريم، حافظاً له كثير الصوم ... كثير اليأس والنجدة في الحروب، وكانت له يد طائلة في علم العربية والكتابة والشعر وله خط حسن كتب بخطه سبعين مصحفاً"[2]

أما ما عُرف به من زهد، فقد أشار بذلك عند تنحيه عن الحكم بقوله"والله لا وليتها ولأخرجن من الدنيا كما دخلت إليها"[3].

لذلك نجد أنه من البديهي أن يخص أسامة بمجمل حديثه هذه الفئة ويجعل لها مكانة في كتابه حيث أورد في الباب الثاني من كتابه بعض أخبارهم، لم يقتصر بها على والده، بل ذكر مجموعة من هؤلاء العلماء الزاهدين وسرد أحداثاً ووقائع جسدوها بمجمل تعاملاتهم مع من حولهم أظهروا فيها مجموعة من الصفات والمناقب التي امتازوا بها، ومن هذا المنطلق كان من الضروري التوقف عند هذه الفئة ودراسة وتحليل ما أورد أسامة في كتابه لمعرفة هذه الصفات والاستفادة والإعتبار بها.

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٥٨٠

(٢) الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن يوسف بن قزأوغلي، (ت٦٤٥هـ) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، حيدر اباد، ١٩٥٩، ج٨، ص١٦٢.

(٣) الكتبي، محمد بن شاكر، عيون التواريخ، تحقيق: الدكتور فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم، ١٩٩٧، ج٢، ص٤٩٧

أولا: الاعتقاد بالكرامات:

فقد تكاثرت هذه الكرامات بعد القرن الخامس بسبب الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية آنذاك، حيث عانت الأمة من الضعف والخور والانكسار، فلجأت إلى الاعتقاد بقوى أخرى غير منظورة لتساعدها في حل مشكلاتها،وتحقيق التوازن الداخليّ في نفس صاحب الكرامة أو راويها أو متلقيها، وممّا يقوّي ذلك أن الأخبار الكراماتيّة التي رواها أسامة أخبار تلقّاها شفاها،ممّا يشير إلى أنّ حلقات السمر كانت تتخذ من الكرامات مادة أساسية في جلساتها مما يعكس طبيعة العقليّة العربيّة في ظلال حروب الإنسان في عقيدته، وبعض أنماط التفكير الّتي سادت في تلك العصور.

وأورد أسامة في (الإعتبار) طائفة من أخبار الصّالحين وكراماتهم،وهي تقوم في جملتها على إيراد الأفعال الخارقة للمألوف بأسلوب حكائيّ بسيط يستميل المتلقّي لما فيه من إثارة وتشويق. وتقوم بنية الكرامة في الكتاب على ثلاثة عناصر رئيسية هي: راوٍ ثم العقدة ثم المدد الإلهي الذّي يمثل الحلّ. وقد تنوعت هذه القدرات الخارقة التي تمتع بها أصحاب الكرامات،ويمكن تصنيفها إلى ما يلي:

أ. **العلاج الخارق:** وقد تمثل في قدرة بعض الأفراد على شفاء الآخرين من الأمراض من دون استخدام أية وسيلة من وسائل الطب المعروفة، ومن هذا ما أورده أسامة تحت عنوان "عليّ يداوي قيم مسجده "حيث يسرد أن قيم مسجد عليّ بن أبي طالب في نواحي الأنبار وكان في وجهه سلعة غطت أكثر وجهه فرأى عليّاً في منامه ،وشكا له ما به ،فاستيقظ وقد شفي من مرضه[١]". وحادثة أخرى سردها تحت عنوان "عليّ يشفي مفلوجاً" حيث يسرد قصة رجل شيعي كان مفلوجاً، فرأى عليّاً في منامه، فأمره بالنهوض فنهض قائماً على رجليه[٢].

ب. **الاستشعار وقوة الحس والعفة وبعد النظروالترفع عن الرذائل:** ويتمثل في تجاوز حدود المكان والقدرة على اكتساب معلومات عن جسم بعيد من غير تدخّل حاسة من الحواسّ، وقد أورد هذا تحت عنوان "بصيرة البصري "وقد حضرته امرأة تسأله أن يسترد لها كتاب مهرها الذي ضاع منها، فقال ما أفعل حتى تأتيني بحلاوة، فاستغرب الحضور طلبه، فألحّ على

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٢٢٥

(٢) المرجع نفسه، ص٢٣٠

المرأة أن تحضر له الحلاوة، فخرجت وجاءته بما طلب "فأخذ القرطاس وفتحه ورمى بالحلاوة قطعة قطعة حتّى فرغ القرطاس، فإذا هو كتاب صداق المرأة الّذي فقدته، فاستعظم من حضره ذلك، فقال: كلوا الحلال وقد فعلتم ذلك وأكثر منه"(١).

ج. **الاستجلاب:** وهو القدرة على استجلاب أشخاص بعيدين دون استخدام أية وسيلة نقل، وفي هذا أورد تحت عنوان "سمع ابن قيس" حيث روى عبد الله بن ميمون الحمويّ، فأوصى أنه إذا مات أن يخرجوا به إلى الصحراء ويطلع إنسان على الرابية التي تشرف على المقابر، وينادي: ياعبد الله بن قيس، مات عبد الله بن ميمون فاحضره وصلّ عليه، فلمّا مات فعلوا ما أمرهم عليه، فلمّا مات فعلوا ما أمرهم به، فاقبل رجل عليه ثوب خام ومئزر صوف من الجانب الذي نادى منه المنادي، وجاء حتّى صلّى عليه، والناس قد بهتوا لا يملّكونه، فلما جاء أنصرف من حيث جاء.

د. **تقديم العون والمساعدة من قوّة غيبية غير مدركة حساً:** وفي هذا يستشهد أسامة بنفسه وأورد هذا تحت عنوان "ملاك يغيث أسامة" "فعندما شارف على الهلاك وهو يجتاز الصحراء في طريق هربه من مصر إلى الشام، فنزل إليه رجل فأمسك بيده حتّى أنقذه، ويعلق قائلاً: ولا والله، ما أدري من هو ولا عدت رأيته"(٢).

هـ. **كرامات الآمكنه:** وهو كرامة يختص بها مكان دون غيرها وفي هذا أشار تحت عنوان "الشق في مسجدالرقيم "وهو شق لا يستطيع العبور منه الإنسان إذا كان مولوداً لغير رشدة، وقد جرّب أسامة نفسه ذلك وكان معهم "عبد أسود ديّن كثيرالصلاة، أدق ما يكون من الرجال وأذبّهم، فجاء إلى ذلك الموضع، وحرص بكلّ حرص على الدخول، فما قدر يدخل، فبكى المسكين(٣).

ثانياً: الزهد في الحياة والتقرب إلى الله وتعويد النفس على المشاق دون الإضرار بها:

وفي هذا أورد تحت عنوان" شهوة شيخ مائت تتحقق" إذ يقول: "وقد حضرت ما يقارب ذلك في حصن كيفا، وكان في مسجد الخضر رجل يعرف بمحمد السماع له

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٢٢١

(٢) المرجع نفسه، ص١٢٠

(٣) المرجع نفسه، ص١٨

زاوية إلى جانب المسجد يخرج وقت الصلاة يصلي جماعة ويعود إلى زاويته وهو رجل من الأولياء فحضرته وهو بالقرب من منزلي الوفاة، فقال: كنت اشتهي على الله تعالى أن يحضرني شيخي محمد البستي. فما جمع له جهاز غسله وكفنه إلا وشيخيه محمد البستي عنده فتولى غسله وخرج خلفه تقدمنا صلى عليه. ثم نزل في زاويته فأقام بها مديدة وهو يزورني وأنا أزوره، وكان رحمه الله عالماً زاهداً ما رأيت ولا سمعت مثله، كان يصوم الدهر ولا يشرب الماء ولا يأكل خبزاً ولا شيئاً من الحبوب، إما يفطر على رمانتين أو عنقود عنب أو تفاحتين ويأكل في الشهر مرة أومرتين لقيمات من لحم مقلي. فقلت له يوماً: يا شيخ أبا عبد الله كيف وقع لك أن لا تأكل خبزاً ولا تشرب ماء وأنت صائم أبداً ؟ قال صمت فطويت فوجدتني أقوى على ذلك، فطويت ثلاثاً وقلت أجعل ما آكله كالميته التي تحل للمضطر بعد ثلث. فوجدتني أقوى على ذلك فتركت الأكل والشرب الماء فألفت النفس ذلك وسكنت إليه فاستمررت على ما أنا عليه، وكان بعض أكابر حصن كيفا قد عمل للشيخ زاوية في بستان جعله له فحضر عندي في شهر أول رمضان وقال قد جئت مودعاً. قلت والزاوية التي قد أعدت لك والبستان؟ قال يا أخي ما لي حاجة فيهما ولا أقيم، وودعني ومضى رحمه الله، وذلك سنة (٥٧٠هـ)[1].

ثالثاً: مقابلة الإحسان بالإحسان والمحافظة على الأمانة: وفي هذا يورد أسامة في "حدثني الشيخ الحافظ أبو الخطّاب عمر بن محمَّد بن عبد الله بن معمر العُلمي بدمشق أوائل سنة (٥٧٢هـ) قال: حكى لي رجل ببغداد عن القاضي أبي بكر محمد بن عبد الباقي بن محمد الأنصاري الفرضي المعروف بقاضي المارستان أنه قال:لما حججت بينا أطوف بالبيت إذ وجدت عقداً من اللؤلؤ فشددته في طرف إحرامي. فبعد ساعة سمعت إنساناً ينشده في الحرم، وقد جعل لمن يرده عليه عشرين ديناراً، فسألته علامة ما ضاع له فأخبرني. فسلمته إليه. فقال لي: تجيء معي إلى منزلي لأدفع إليك

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٢٢٢

ما جعلته لك، فقلت: ما لي حاجة إلى ذلك وما دفعته إليك بسبب الجعالة، وأنا من الله بخير كثير، فقال: ولم تدفعه إلا لله عز وجل؟ فقلت: نعم، فقال: استقبل بنا الكعبة وأمّن على دعائي، فاستقبلنا الكعبة فقال: اللهم اغفر له وارزقني مكافأته، ثم ودعني ومضى. ثم اتفق أنني سافرت من مكة إلى ديار مصر. فركبت في البحر متوجهاً إلى المغرب، فأخذت الروم المركب وأسرتُ في من أسر. فوقعت في نصيب بعض القسوس، فلم أزل أخدمه إلى أن دنت وفاته فأوصى بإطلاقي، فخرجت من بلد الروم فصرت إلى بعض بلاد المغرب، فجلست أكتب على دكان خباز وكان ذلك الخباز يعامل بعض تناه تلك المدينة. فلما كان في رأس الشهر جاء غلام ذلك التانيء فقال: سيدي يدعوك لتحاسبه"، فصحبني معه ومضينا إليه فحاسبه على رقاعه، فلما رأى معرفتي في الحساب وخطي طلبني من الخباز فغير ثيابي، وسلم إلي جباية ملكه وكانت له نعمة ضخمة، وأخلى لي بيتاً في جانب داره فلما مضت مديدة قال لي: يا أبا بكر ما رأيك في التزويج؟ قلت: يا سيدي أنا لا أطيق نفقة نفسي فكيف أطيق النفقة على زوجة؟، قال: أنا أقوم عنك بالمهر والمسكن والكسوة وجميع ما يلزمك، فقلت: الأمر لك، فقال: يا ولدي إن هذه الزوجة فيها عيوب شتى ولم يترك شيئاً من العيب في الخلقة من رأسها إلى قدمها إلا ذكره لي وأنا أقول: رضيت. وباطني في ذلك كظاهري؛ فقال لي:الزوجة ابنتي، وأحضر جماعة وعقد العقد فلما كان بعد أيام قال لي: تهيأ لدخول بيتك"، ثم أمر لي بكسوة فاخرة ودخلت إلى دار فيها التجمل والآلات، ثم أجلست في المرتبة،وأخرجت العروس تحت النمط، فقمت لتلقيها. فلما كشفت النمط رأيت صورة ما رأيت في الدنيا أجمل منها، فهربت من الدار خارجاً فلقبني الشيخ وسألني عن سبب هربي، فقلت: إن الزوجة ما هي التي ذكرت لي فيها من العيوب ما ذكرت. فتبسم وقال: يا ولدي هي زوجتك وليس لي ولد سواها. وإنما ذكرت لك ما ذكرت لئلا تستقل ما تراه، فعدت وجُليتْ عليّ. فلما كان من الغد جعلت أتأمل ما عليها من الحلي والجوهر الفاخر فرأيت من جملة ما عليها العقد الذي وجدته بمكة. فعجبت من ذلك واستغرقني الفكر فيه. فلما خرجت من البناء استدعاني وسألني عن حالي، وقال: جدع الحلال أنف الغيْرَة، فشكرته على ما فعله معي، ثم استولى على

الفكر في العقد ووصوله إليه. فقال لي: فيم تفكر؟، فقلت: في العقد الفلاني؛ فإني حججت في السنة الفلانية فوجدته في الحرم أو عقداً يشبهه، فصاح وقال أنت الذي رددت على العقد؟ قلت: «أنا ذاك»، فقال: «ابشر! فإن الله قد غفر لي ولك؛ فإني دعوت الله سبحانه في تلك الساعة أن يغفر لي ولك، وأن يرزقني مكافأتك، وقد سلمت إليك مالي وولدي وما أظن أجلي إلا وقد قرب»، ثم أوصى إليّ ومات بعد مديدة قريبة رحمه الله[١].

[١]) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٢٣١

الفصل الثالث

مظاهر الحضارة والعمران الاجتماعي في كتاب الإعتبار

ألقى أسامة أضواء كاشفة على كثير من مظاهر الحياة في عصره، وصوّر أحوال بعض البلدان الشاميّة وحظّها من العمران، وازدهار الزراعة، وتكاثر الثروة الحيوانيّة، كما صوّر قوّة الروح الحربيّة في نفوس القوم وبطولات بعض الفرسان المسلمين، وبعض الأساليب المتبعة في تربية الناشئة.

١.٣ أحوال بعض البلدان الشاميّة وحظّها من العُمران

١.١.٣ العُمران والسُّكّان

كانت البداوة هي السمة الغالبة على الأجزاء الجنوبيّة من بلاد الشام، وكان معظم البدو الذين عاشوا في هذه المنطقة ينتسبون الى قبيلة طيء العربيّة، وكانت هذه القبيلة قد أقامت لها كياناً مستقلاً في تلك المناطق منذ أوائل القرن الرابع الهجريّ، ومع أنّ الرّملة كانت مركز الإمارة الطائيّة أوّل الأمر، فإنّ الحروب الصليبيّة فكّكت هذه الإمارة ودفعت بقبائلها إلى الأجزاء الجنوبية الشرقية من ديار الشام، وقد التقى أسامة بن منقذ في أثناء اجتيازه بوادي موسى الذي يقع جنوب الأردن اليوم،منصور بن غدفل أحد زعماء هذه القبائل، ونعته أسامة بعبارة "وهو صديقي"، وقد مكّنه من اجتياز وادي موسى آمناً[١].

ووصف أسامة الوضع المتردّي لمستوى المعيشة لهذه القبائل البادية، أو كما سمّاهم (العربان) [٢]، فقد رأى "بهم من الضرّ أمراً عظيماً: قد يبست جلودهم على عظامهم"[٣]، و"لا يأكلون إلاّ الميتة"[٤]، ولم يرو الزّاد مدّة طويلة، لذلك فقد كادت "عقولهم تزول من فرحهم"[٥]عندما أعطاهم أسامة ممّا يحمله معه من زاد. ومن ثمّ فإنّ

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٢٧

(٢) المرجع نفسه، ص١١

(٣)المرجع نفسه، ص١٢

(٤) المرجع نفسه، ص١٢

(٥) المرجع نفسه، ص١٢

هذه القبائل لم تكن لتعفّ عن نهب ما تقع عليه أيديها، والتعرّض للقوافل التي تجتاز المناطق التي تتحرك فيها[١]بل إن بعضها–تحت وطأة الظروف القاسية– لم تكن تجد حرجاً في أن تعمل دليلاً للفرنجة، ممّا دفع صلاح الدين الأيّوبيّ أن يرسل إليها بعض الحملات لتأديبها[٢].

ويستشفّ من كتاب الإعتبار أنّ ديار الشام كانت في مطلع القرن السادس الهجريّ مقسّمة إلى دويلات إثنيّة، فهناك دولة عربيّة لبني عمّار في طرابلس، ودولة عربيّة أخرى لبني منقذ في شيزر، ودولة سلجوقية في دمشق، بالإضافة إلى نشوء الزّنكيّين واستحكام دولتهم في حلب، ثمّ نفوذ الروم في بعض المناطق، عدا الصليبيّين الّذين بسطوا سيطرتهم على كثير من المناطق[٣]. وهذا يعني أنّ النّسيج السكّاني لديار الشّام كان متنوّعاً، وكان هذا االنسيج متداخلاً، ومن ثمّ فقد ذكر أسامة بن منقذ فى(الإعتبار) صنوفاً متعدّدة من النّاس الذين ينحدرون من أعراق مختلفة وكانوا يقطنون شيزر وما جاورها، أو يفدون إليها، وكان يصف بعض المهامّ الاجتماعيّة التي يقوم بها كلّ منهم؛ ويلاحظ أنّ الأفراد الذين كانوا ينحدرون من أصول عربيّة غالباً ما كانوا ما يقومون بأعمال الفروسيّة.

ونقل أسامة صوراً متعدّدة لبطولات هؤلاء الفرسان العرب، وهي صور لا نظفر بها في كتب التاريخ الرسميّ[٤]. ويُضاف إلى العرب الأتراكُ والتركمانُ والأكرادُ والأرمن والرومُ. وكانت هذه الأجناس تقوم بوظائف شتّى؛ فمنهم من كان يعمل في مجال الفروسيّة، ومنهم من كان يمتهن حرفة معيّنة، ومنهم من كان يعمل في الخدمة، لذلك فإنّنا نقف في (الإعتبار) على نماذج بشريّة متنوّعة في سياق حركة المجتمع الشاميّ آنذاك،مثل: الطحّان، ورعاة الأغنام والخيل، والطبّاخ(خوان سلار)، والمجبّر، والركابيّ، والحلاّجين، والديدبان، والحدّاد،والبرجاسيّ(التاجر)، وخدم الدور،والمماليك الصغارلجرّالجنائب وحمل السلاح، والفلاّحين، والنواطير، والعلاّف

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٢٧

(٢)ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج١، ص٥٢٧

(٣) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٥، ٤٠، ٥٢، ٢٢١.

(٤) المرجع نفسه، ص٣٦–٣٧، ٥٧.

الّذي يبيع التبن والشعير،وبائعي الدوابّ، والفقاعيّ، والمغربلين، والبنّائين الّذين يضربون اللبن[١]، وغير ذلك، ممّا يدلّ على تعدّد أوجه الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة آنذك.

ونظراً لتعدد الأجناس في ديار الشام لم تكن اللغة العربيّة وحدها لغة التخاطب اليوميّ، فقد كان الغلمان الأتراك يتكلمون بالتركيّة فيما بينهم، وقد سمع أسامة اثنين منهم يتحدثان، ولم يفهم ما يقولانه[٢]، وذكر أسامة موقفاً آخر لجماعة من الفرسان"يتكلّمون بالتركيّ ولا أدري ما يقولون"[٣].

وصوّر أسامة بعض الظواهر الاجتماعيّة التي انتشرت آنذك، ومن هذه الظواهر:

ا- الحرمنة أو اللصوصيّة: ولعلّ انتشارها كان نتيجة للحرب من ناحية، وتطاولها إلى مايقارب من مائتي سنة من ناحية أخرى، وما ترتّب على ذلك من ظهور فئات العاطلين عن العمل الذين شرّدتهم الحروب، واضطرتهم إلى النهب والسلب[٤]، وقد ورد في كتاب (الإعتبار) أخبار مختلفة عن هؤلاء الحراميّة الّذين كانوا يعترضون سبل القوافل، ويهاجمون الضياع[٥]، ويستدلّ من بعض هذه الأخبار أنّهم كانوا يتخذون شكل العصابات والتحرّك في مجموعات كبيرة، فقد قال في أحد الأخبار: "لا تمضوا، فإنّ في طريقكم في الموضع الفلانيّ عقد حراميّة في ستين سبعين رجلاً يأخذونكم" [٦].

وكانت تتخذ – أحيانا– طابعاً منظّما من المسلمين ومن الإفرنج على حدّ سواء، فقد اعتمد وليّ الأمر آنذاك على بعض أبناء القبائل العربيّة لسلب غلاّت العدوّ، وجمع

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٠٥، ١٠٧، ١١٤، ١١٧، ١٢٤، ١٢٧، ١٣٩، ١٤١، ١٤٥، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٨، ١٦٠، ١٦٣، ١٧٧، ١٨٤، ٢٢٣ .

(٢) المرجع نفسه، ص١٠٠.

(٣) المرجع نفسه، ص١٥١.

(٤) عباس، إحسان، بلاد الشام في عهد أتابكة والأيوبيين(٤٩٠–٦٥٠)، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنيّة، جامعة اليرموك، ١٩٩٨، ص٣١٢

(٥) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٧٠، ١٥٣، ١٥٤

(٦) المرجع نفسه، ص٧٩

الأقوات واختطاف جنوده وهم أحياء[١]، كما كانت ترافق الجيوش-أحياناً- فئات من البدو والنهّابة والصعاليك لنهب الزروع والغلاّت[٢]، كما كان الفلاّحون في الديار المحتلّة يدلّون حراميّة المسلمين على ضياع الإفرنج[٣].

ب- مكانة المرأة: اهتمّ أسامة بن منقذ بأخبار النّساء وأحوالهنّ في عصره، وأورد نماذج نِسْويّة متعدّدة كان لها دورها في المجتمع الشاميّ آنذاك، مثل الأسيرة، والندّابة، والساحرة، والعابدة، والطبّاخة، والمربيّة، والجارية[٤] غير أنّ النموذج الأكثر دوراناً في الكتاب هو نموذج (المرأة المقاتلة)؛ فقد ضربت المرأة الشيزريّة بسهم وافر في صدّ الأعداء الّذين كانوا يهاجمون شيزر من الإسماعيليّة الباطنيّة والروم والإفرنج، فعندما هاجم الإسماعيليّة شيزر وأراد سنان الدولة شبيب بن حامد ابن عمّ أسامة الفرار من الحصن بما يمكنه حمله من متاع وأثاث دخل عليه الدّار إنسان"عليه زرديّة وخوذة ومعه سيف وترس، فلمّا رآه أيقن بالموت، فوضع الخوذة، وإذا هي أمّ ابن عمّه ليث الدولة يحيى"[٥].

فوبّخته على ما فعله قائلة: "بئس ما تفعل تخلّي بنات عمّك وأهلك للحلاّجين[٦] وتروح ؟ فعاد عمّا أراد وخرج للقتال، وصار من الفرسان المعدودين. كذلك فقد تلثّمت في ذلك اليوم عجوز من جواري جدّ أسامة، و"أخذت سيفاً وخرجت إلى القتال"[٧].

وأعجب أسامة بنخوة أمّه في ذلك اليوم، وجعلها أشدّ من نخوات الرجال، لأنّها أخذت ابنتها إلى مكان حصين، وحملت معها السلاح، ووقفت الأمّ تحرسها من الباطنيّة، فإذا شعرت أنّ الخطر محدق بها رمتها إلى الوادي، فتراها قد ماتت ولا

---

(١) الأصفهاني، العماد، سنا البرق الشامي، اختصار الفتح البنداريّ؛ بهاء الدين بن شداد، تحقيق فتحية النبراوي، القاهرة، ١٩٩٧. ص١٤٥

(٢) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٤٠، ١٥١

(٣) المرجع نفسه، ص١٣٨

(٤) المرجع نفسه، ص٧١، ١١٥، ١٢٣، ١٢٦، ١٤٠، ١٨٦، ٢٨٠

(٥) المرجع نفسه، ص١٢٤

(٦) طائفة من الإسماعيلية سكنت شيزر، يحلجون القطن، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٩، ص٤٠٨

(٧) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٢٥

تراها "مع الفلاّحين والحلاّجين مأسورة"[١]. بل إنّ بعض النّساء المسلمات كنّ يُغرقن أنفسهن إذا وقعن في سبي الإفرنج[٢]، كذلك شاركت المرأة الشاميّة في جهاد الإفرنج بصور شتّى؛ فقد قتلت امرأة في كفر طاب زوجها عندما رأته يتعاون مع الإفرنج، ويدلّهم على عورات المسلمين[٣]. وعندما هاجم الإفرنج شيزر خرج النّاس للتصدّي لهم، وخرجت مع النّاس امرأة، وأسرت ثلاثة من الإفرنج، وحجزتهم في بيتها، ثمّ دعت قوماً من جيرانها وقتلوهم[٤].

ج. ونقل أسامة لنا في كتابه(الإعتبار) صوراً من حياة القوم في جدّهم ولهوهم، وحربهم وسلمهم، وأفراحهم وأحزانهم،؛ فقد صوّر أُلهيات الكُبراء ولا سيّما الصيد واللعب بالشطرنج[٥].

وصوّر ترف الطبقات الغنيّة والنعيم الذي كانت تعيش فيه[٦]، ووصف بعض مجالس لهوهم[٧]، وأخطار بعض الحركات المتطرّفة[٨]، كما أشار إلى احتفال الناس بليلة النصف من شعبان، وإحيائها بالصلاة وقراءة القرآن[٩]، ووصف بعض الحمّامات العامّة في معرّة النعمان وصور وكيفيّة دخول الناس لها، واستخدامهم لمرافقها[١٠]، وذكر أسماء بعض الملابس التي كان يرتديها علية القوم[١١]، والملابس التي يرتديها الرجل ليلة عرسه[١٢]، والحليّ التي تتزيّن بها العرائس[١٣]، وأشار إلى اتّخاذهم الحمام الهوادي في مراسلاتهم[١٤]،

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٢٥.

(٢)المرجع نفسه، ١٥٠

(٣)المرجع نفسه، ص١٢٨

(٤)المرجع نفسه، ص١٢٩

(٥) المرجع نفسه، ص١٠٦، ١٤٥، ٢٠٢.

(٦) المرجع نفسه، ص١٩، ٢٥، ٢٩، ٢٠٤

(٧) المرجع نفسه، ص ١٢٧

(٨) المرجع نفسه، ص ١٣٦-١٣٧

(٩) المرجع نفسه، ص١١

(١٠) المرجع نفسه، ص٤٩

(١١) المرجع نفسه، ص١٨٠

(١٢) المرجع نفسه ص٣١

(١٣) المرجع نفسه ص٥١

(١٤) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٦٠- ١٦٢

وروى بعض الملح والفكاهات التي كانوا يتداولونها فيما بينهم[١]. كما صوّر،كما صوّر أخطار بعض الحركات المتطرّفة[٢].

٢.١.٣ النشاط الاقتصاديّ (التجارة والزراعة):

على الرغم ممّا تعرضت له ديار الشام من تدمير وتخريب على أيدي الغزاة الصليبييّن فإنّ هذه الديار لم تفقد نشاطها الاقتصادي، فقد ظلت قوافل التجارة تتردّد بين المدن الشاميّة، وبين مدن الشام والعراق[٣]، وبين المدن الإسلاميّة والمدن الخاضعة لسيطرة الإفرنج، وكانت هذه القوافل خوفاً من اللصوص تسير احياناً تحت الحماية العسكريّة، فيرافقها الفرسان حتّى تبلغ مأمنها[٤].

وكانت قوافل التجّار(البرجاسية) في مأمن من الحرب، فلا يتعرّض لها المحاربون من المسلمين والإفرنج، فقد ذكر أسامة أنّه أرسل صاحباً له إلى أنطاكية في شغل، فتعلّقت به إمرأة إفرنجيّة تحرّض على قتله، فرآه فارس منهم، فجاء وقال للمرأة: ما لك ولهذا المسلم؟ قالت: هذا قتل أخي عرس...فصاح عليها وقال: هذا رجل برجاسيّ(أي تاجر)لا يقاتل ولا يحضر القتال"[٥].

وقريب من هذا ما ذكره ابن جبير في رحلته، حيث قال: ومن أعجب ما يُحدّث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين، وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم، دون اعتراض عليهم"[٦]. وقد عاد ابن جبير إلى الحديث عن ذلك في موضع آخر من رحلته، فقال متعجباً: "ومن أعجب ما يُحدّث به في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج، وسبيهم

---

(١) المرجع نفسه، ص١٨٢

(٢) المرجع نفسه ص ٥٧، ٧٠، ٧٩ ،٨٤، ١٨٢

(٣) المرجع نفسه ص ١٤١

(٤) المرجع نفسه ص٥٧، ٧٠، ٧٩، ٨٤، ١٨٢

(٥) المرجع نفسه، ص١٤١

(٦) ابن جبير، محمود بن أحمد الكناني(ت٦١٤هـ)، رحلة ابن جبير، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٤، ص٣٦٠

يدخل إلى بلاد المسلمين"[١]، "وناهيك من هذا الاعتدال في السياسة"[٢]، ويستشفّ من كتاب (الإعتبار) ازدهار الزراعة في الأجزاء الشماليةّ من بلاد الشام، نظراً لخصوبة الأراضي، وتوفّر مياه الأنهار، وغزارة الأمطار[٣] بالإضافة إلى وفرة الأيدي العاملة من الفلاّحين(العرب والأرمن والروم) الذين كانوا يعملون في الإقطاعيّات الواسعة لقاء أجر معلوم[٤]. وأهم المحاصيل الزراعيّة التي كانت تزرع في المروج الواسعة شمال بلاد الشّام آنذاك، وعلى رأسها الغلّة(القمح)، والزيتون، والقطن، والكرمة، وأنواع الفواكه[٥]. بالإضافة إلى البساتين الصغيرة داخل القرى والمدن، والغابات الكثيفة التي كانت تستغلّ في صناعة الأخشاب[٦].

ونعمت بلاد الشام في القرن السادس الهجريّ بثروة حيوانيّة كبيرة، وهي تشمل الحيوانات الدّاجنة من خيل وبغال وجمال وبقر وأغنام، كما تشمل بعض الحيوانات والطيور البريّة، وقد ذكر أسامة أنواعاً كثيرة من الحيوانات البريّة في معرض حديثه عن تجاربه في الصيد في شيزر وغيرها، وغالبا ما كانت تتكاثر هذه الحيوانات في الأزوار المنتشرة حول الفرات[٧]، ومن هذه الحيوانات الغزلان، ومنه الغزال الآدميّ، والأرانب، وحمر الوحش، واليحامير، والسنجاب، والأراويّ، ومعزى الجبل، والثعالب، والخنازير، والفهود[٨]. وقد كانت الحيوانات المفترسة مثل الأسود والذئاب والضباع ما زالت تعيش في الآجام والغياض آنذاك. ومن الطيور الدرّاج، والكركيّ، والحجل، والزرخ، والعيمة وهي من طير الماء، والزرّراق، والباز، والحمام، والسّمان، والسمند، والإوز، والحرجل، والشواهين[٩]. يُضاف إلى ذلك الثروة السمكيّة الكبيرة التي كانت

---

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٢٧١

(٢) المرجع نفسه، ص٢٧٣

(٣) المرجع نفسه، ص٨٦، ٨٧، ٨٩، ٩٠ ،٩٢، ١٠٠، ١٤٢، ١٥٧، ٢٠٥.

(٤) المرجع نفسه، ص٣١، ٥٠، ٨٢، ١٥٣،١٥١.

(٥) المرجع نفسه، ص٤٠، ٤٣، ١٥١، ١٥٧.

(٦) المرجع نفسه، ص١٤٢.

(٧) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٠٦، ٢٢٢، ٢٢٦

(٨) المرجع نفسه، ص٩٣، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٧، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢٢٣.

(٩) المرجع نفسه، ص٦٨، ٨٤ ،١٩٣، ١٩٦، ٢٠٠، ٢٠٥، ٢١٠، ٢١٧

تتكاثر في الأنهار، وقد وصف أسامة الأساليب العجيبة التي كان يستخدمها صيّادو السمك في الصيد، وكيف أنّه كان يخرج إلى أماكن الصيد، ليستمتع بما يراه من هذه الأساليب، "فكانت تكون فرجتنا عليهم كفرجتنا على الصيد بالبزاة"[١] كما يقول.

وثمّة مصدر آخر لهذه الثروة الحيوانيّة يتمثّل في الغنائم الّتي كن يحرزها المسلمون من الإفرنج، فعندما دخل المسلمون مرج أفامية ساقوا "منه غنيمة كبيرة من الجواميس والبقر والغنم"[٢].

وذكر أسامة حكايات متفرّقة تبيّن اهتمام القوم بتربية الحيوانات، واعتنائهم بها، ورعايتهم لها، وحدبهم عليها، ولا سيّما حيوانات الصيد منها؛ فقد ذكر أسامة أنّه أصبح يوماً بحماة "وقد حضر القرّاء والمكبّرون وخلق عظيم من أهل البلد" ، فسأل صاحب حماة عن الميّت، فأخبره "أنّه الباز اليحشور"[٣]، وأنّه عمل له تابوتاً وجنازة وقبراً، لأنّه-كما يقول-يستحقّ ذلك. وذكر أسامة أنّه كانت في دارهم فهدة لها جارية تخدمها، وتسرّح جسمها بالمشط،" ولها في جانب الدّار قطيفة مطويّة تحتها حشيش يابس..."[٤].

٣.١.٣ شذرات ثقافيّة

يُستدلّ من كتب الرحّالة الّذين زاروا بلاد الشام في القرن السادس الهجريّ ازدهار الحركة الفكريّة في هذه الديار، فقد تكاثرت المدارس فيها تكاثراً ملحوظاً، فقلّما خلت مدينة من المدن الّتي زارها ابن جبير منها، ويتفاوت عددها بحسب عظم المدينة وأهميتها، فقد كان في حلب نحو ستّ مدارس، وفي حماة ثلاث مدارس، وفي دمشق نحو عشرين مدرسة بالإضافة إلى دار للحديث[٥]. وقد هيّأ وليّ الأمر آنذاك الأجواء الملائمة للطلب والتّحصيل، فأجروا على المعلمين الرواتب الواسعة، وقدّموا

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص ٢١٩

(٢) المرجع نفسه، ص٥٨، ٧٦

(٣) المرجع نفسه، ص٢٠٦

(٤) المرجع نفسه، ص٢٠٨

(٥) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٣٢٤، ٣٢١، ٣١٧

للطلاب ما يلزمهم من الأموال والأطعمة والأكسية؛ لذلك حثّ ابن جبير النّاشئة من أهل المغرب إلى القدوم إلى بلاد الشام طلباً للعلم؛ " فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرّب في طلب العلم فيجد الأمور المعينات كثيرة، فأوّلها فراغ البال من أمر المعيشة، وهو أكبر الأعوان وأهمها، فإذا كانت الهمّة فقد وجد السبيل إلى الاجتهاد، ولا عذر للمقصّر إلاّ من يدين بالعجز والتّسويف، فذلك من لا يتوجّه هذا الخطاب عليه، وإنّما المخاطب كلّ ذي همّة يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده في وطنه من الطلب العلميّ، فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك، فادخل أيّها المجتهد بسلام..."[١].

ويبدو أنّ أسامة لم يكن في كتابه (الإعتبار) معنيّاً برصد مظاهر الحركة الثقافيّة في المدن الّتي زارها، غير أنّنا نجد بعض الإشارات إلى أسماء بعض العلماء في العلوم الدينيّة واللغويّة، مثل الفقيه الفندلاويّ والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحوليّ[٢]، والفقيه برهان البلخيّ، وكان مقيماً بدمشق[٣]، والرئيس أبو تراب حيدرة، وكان شيخ أسامة "الذي حفظ عليه القرآن وقرأ عليه العربيّة"[٤]، والشيخ أبو عبدالله الطليطليّ النحويّ متولّي دار العلم في طرابلس، "وكان في النحو سيبويه زمانه"[٥].

وتحدّث أسامة عن اهتمام والده بنسخ المصاحف، فقد كان "نسّاخاً يكتب خطّاً مليحاً... وكان لا ينسخ سوى القرآن"[٦] غير أنّ أسامة أبدى اهتماماً ملحوظاً بالعلوم الطبيّة، ولعلّ ذلك يعود إلى طبيعة العصر وما فيه من حروب، استدعت وجود الأطباء لمعالجة الجرحى والمرضى، ومن هؤلاء الأطبّاء يوحنّا ابن بطلان[٧]؛ مارس الطبّ في حلب وشيزر وأنطاكية، وكانت له عيادة في حلب، وكان مشهوراً "بالمعرفة

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ٣٦٠

(٢) المرجع نفسه، ص٩٥

(٣) المرجع نفسه، ص١٤٠.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢١٥.

(٥) المرجع نفسه، ص ٢٠٨.

(٦) المرجع نفسه، ص٥٦

(٧) يوحنا بن بطلان طبيبي بحلب، أنظر: ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، القاهرة ١٨٨٢، ص٢٤١١.

والعلم والتقدّم في صنعة الطبّ"[١]، و" له إصابات عجيبة في الطبّ"[٢]، وقد ذكر أسامة في كتابه أسماء بعض المرضى الذين عالجهم هذا الطبيب، والأمراض التي كانوا يعانون منها، وكيفيّة معالجتها[٣].

وترتّب على كثرة الحروب آنذاك، وما يقع فيها من جرحى أن كثر الجرائحيّون في بلاد الشام، وأشار أسامة في مواضع متفرّقة من كتابه إلى هؤلاء الجرائحيين ومجالات اختصاصهم، ومن هؤلاء زيد الجرائحيّ، وقد عالج والد أسامة من طعنة في يده قطعت عصبها فاسترخت، ووصف أسامة العصب المقطوع وصفاً دقيقاً، فقد كان "أبيض كأنّه حصاة من حصا الفرات"[٤].

وكان بعض الجرائحيين مختصّاً في إصابات العين؛ فقد أصيب عزّالدين عمّ أسامة في جفن عينه الأسفل، فسقط الجفن جميعه، وبقي معلّقاً، والعين تلعب لا تستقرّ، "فخاطها الجرائحيّ وداواها فعادت كحالها الأوّلة لاتعرف العين المطعونة من الأخرى"[٥].

وثمّة جرائحيّون آخرون مختصّون بالجراح التي تصيب البطن، فقد طُعن صديق لأسامة "تحت سرّته فشقّ جوفه قدر أربع أصابع، فوقع موضعه...وتردّد على الجرائحيّ فصلح..."[٦].

وتحدّث أسامة عن جرائحيين يعالجون الجراحات الخطيرة التي تصيب الوجه، فقد أصيب أحد الفرسان بضربة من الإفرنج في وجهه " فقطع وجهه إلى أذنيه، وقد استرخى نصف وجهه صار على صدره..." فخاط الجرائحيّ وجهه وداواه، والتحم ذلك الجرح[٧].

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص ١٨٤
(٢) المرجع نفسه، ص١٨٣
(٣) المرجع نفسه، ص١٨٤
(٤) المرجع نفسه، ص٥٢
(٥) المرجع نفسه، ص٥٥، ٨٥
(٦) المرجع نفسه، ص١١٤
(٧) المرجع نفسه، ص١٦٣

وقد يُضطر الجرائحيّون إلى العلاج بالقطع أحياناً؛ فقد طلعت في رجل أحد رجال بني منقذ حبّة " تخبّثت، فتناثرت أصابعه، وأنتنت رجله، فقال له الجرائحيّ: ما لرجلك إلاّ القطع وإلاّ تلفتَ"[١].

ومن الأساليب التي كان يستخدمها الجرائحيّون الفصاد، ونقل أسامة موقفاً طريفاً عن أحد المرضى الذي كان يتغيّر لونه، ويرتعد إذا حضر الفاصد، غير أنّ بعض المرضى كان يموت بعد الفصاد[٢].

كما أشار أسامة إلى بعض المجبّرين منهم "رجل صانع يقال له يحيى صانع في التجبير"، كذلك تحدّث عن بعض الأطباء البيطريين الذين اهتموا بعلاج الحيونات والطيور، ومن هؤلاء "بازيار طويل اليد في إصلاح البزاة وعلاجها يقال له غنائم"، وبازيار آخر كان "صانعاً مجوّداً في إصلاح الشواهين"[٣].

٢.٣ النزعة التربويّة في كتاب الإعتبار

يستشفّ من كتاب الإعتبار كثيرٌ من الأساليب التربويّة التي كان ينتهجها القوم آنذاك في تنشئة أبنائهم وتربيتهم، وتنمية الجوانب المتعدّدة لشخصيّاتهم، وإعدادهم لنمط معيّن من أنماط الحياة عن طريق التعليم والتدريب والتهذيب والممارسة، ولم ترد هذه القيم على نحو مباشر، وإنّما جاءت في سياق عرض أسامة لتجاربه الشخصيّة، واهتمام ذويه بتأديبه، وفي سياق المبادئ الّتي استخلصها من معاناته في الحياة. وسأقف هنا عند أبرز الأساليب التربويّة الّتي يمكن استنتاجها من الكتاب:

أ.التعليم: ذكر أسامة أنّ والده عُني منذ طفولته بتحفيظه القرآن الكريم وتعليمه القراءة والكتابة، وقد تولّى أبوه نفسه ذلك، وذكر أسامة حادثة تدلّ على مدى متابعة والده له

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص ١٤٦

(٢) المرجع نفسه، ص١٤٦، ١٤٧.

(٣) المرجع نفسه، ص٦٦، ١١٤، ٢٠٠، ٢١١

ولأخوته، واهتمامه بتعليمهم، فقد كانوا إذا خرجوا معه للصيد وهم صبيان، يأمرهم قائلا: "تفرّقوا، كلّ من عليه قراءة يقرأها"[١]، فيتفرّقون، ثمّ يستدعيهم بعد مدّة ويسألهم كم قرأ كلّ واحد منهم. بل كان المقرئون يرافقونهم في رحلاتهم، فيقرؤون مرّة، وينشدون مرّة، ويغنّون مرّة[٢]. وقد استعان والده ببعض المؤدّبين في تعليمه؛ ومن هؤلاء الشيخ العالم أبو عبدالله محمد بن يوسف المعروف بابن المنيرة[٣]، الذي درس عليه الفقه والحديث وعلوم العربية، كما كان يفاوضه أحياناً في شؤون القتال[٤]، والشيخ أبو عبدالله الطليطليّ[٥]، وقد قرأ عليه النحو قريباً من عشر سنين، كما عمل هذا الشيخ على تأديب أمراء بني منقذ وتثقيفهم[٦].

ب.التجربة والممارسة: ومن الأساليب التي كانت متّبعة في تربية الأبناء التدريب العمليّ والتجربة والممارسة، وفي هذا يقول أسامة بن منقذ في سياق حديثه عن تجاربه في مكافحة الأسود والضواري: "وما رأيتُ الوالد،رحمه الله، نهاني عن قتال ولا ركوب خطر مهما كان يرى فيّ وأرى من إشفاقه وإيثاره لي"[٧].

ويضرب أسامة حوادث متعدّدة تمثّل ذلك، فقد هاجم الإفرنج شيزر ذات يوم، فيأمره أبوه أن يتبعهم بمن معه قائلاً: "اتبعهم بمن معك، وارموا أنفسكم عليهم، واستخلصوا رهائنكم"[٨].

وكان أسامة عرضة للاختبار في كلّ لحظة لتفقّد جاهزيّته وتيقّظه؛ فقد ذكر أنّ عمّه عزّالدين كان يتفقّد منه حضور فكره في القتال ويمتحنه بالمسألة، ويروي حوادث متعدّدة امتحن فيها عمّه حضور قلبه، وسلامة فكره في المواقف القتالية[١].

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٢٠١

(٢) المرجع نفسه، ٢٢٠

(٣) من اهل كفر طاب نزل حصن شيزر ترجم له ياقوت فقال:سمع الحديث على أبي السمح الحنبلي وصنف بحر النحو نقض فيه مسائل كثيرة من أصول النحويين ونقد الشعروغريب القرآن (ت٤٣٥هـ)معجم الأدباء ،١٢٢/١٩

(٤) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٨٥

(٥) أبو عبدالله الطليطلي النحوي، نزيل شيزر. انظر: الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ج١، ص٥٧٣

(٦) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٢٠٨-٢٠٩

(٧) المرجع نفسه، ص١٣٢

(٨) المرجع نفسه، ص١٠٠-١٠٢

وذكر أسامة في كتابه كثيراً من المعلومات والمهارات التي اكتسبها بالتجربة والممارسة، من ذلك ما خبره من أمر الصيد والقنص والجوارح؛ "فالبراذين بالوحش أشبه ممّا هي بالخيل"[٢]، ورأى من نوعٍ من" الوزّ...حميّة وشجاعة كحميّة الرجال وشجاعتهم"[٣]، و" منايا الحيون مختلفة الألوان"[٤]، "ولو كان للخنزير ظفر وناب مثل الأسد كان أشدّ بأسًا من الأسد"[٥]، وأنّ في الخيول "الصبور كالرجال وفيها الخوّار"[٦]، وأنّ "الأُسدَ كالناس فيها الشجاع وفيها الجبان"[٧]. وهدته خبرته في القتال إلى أنّ نوعا من الجراح يبرأ بالفصاد[٨]، و"أنّ على من وصل إلى الطعن أن يشدّ يده وذراعه على الرّمح إلى جانبه ويدع الفرس يعمل ما يعمله في الطعنة، فإنّه متى حرّك يده بالرمح أو مدّها به لم يكن لطعنته تأثير ولا نكاية[٩].

و"أنّ العقل هو الّذي يحمل على الإقدام على السيوف والرماح والسهام أنفة من موقف الجبان وسوء الأحدوثة...وكلّ أمر لا يحضره العقل يظهر فيه الخطأ والزلل"[١٠]، وأنّ "النصر من الله تبارك وتعالى لا بترتيب وتدبير، ولا بكثرة نفير ولا نصير"[١١].

ج–القدوة الحسنة: أُعجب أسامة بوالده إعجاباً كبيرًا، ولعلّه اتخذه مثلاً أعلى يقتدي به، ويتأسّى خطواته؛ فهو لا يخفي إعجابه به، وتنويهه بسجاياه وأخلاقه، كما في قوله: "... وما رأيت مثل والدي، رحمه الله، فما أدري كنت أراه بعين المحبّة كما قال

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٢١٥

(٢) المرجع نفسه، ص٢١٧

(٣) المرجع نفسه، ص٢٢٢

(٤) المرجع نفسه، ص٢٢٤

(٥) المرجع نفسه، ص ٩٦

(٦) المرجع نفسه، ص١٠٦

(٧) المرجع نفسه، ص٣٣

(٨) المرجع نفسه، ص٤٢

(٩) المرجع نفسه، ص٤٤

(١٠) المرجع نفسه، ص٨٥

(١١) المرجع نفسه، ص ١٤٧

القائل:(وكلّ ما يفعل المحبوب محبوب)، ما أدري أكان نظري فيه على التحقيق"(١). ثم يسرد أسامة مجموعة من الوقائع ليدع القارئ يستنتج صحّة رأيه في والده، من ذلك قوله: "وكان، رحمه الله، مع ثقل جسمه وكبر سنّه، وأنّه لا يزال صائمًا يركض نهاره كلّه...ونحن معه أربعة أولاده نتعب ونكلّ، وهو لا يضعف ولا يكلّ ولا يتعب"(٢)"، بل إنّه أحياناً كان يجنح إلى إعلاء صورة أبيه، فيقرنه بطريقة غير مباشرة بالعظمة التاريخيّة ممثّلة بشخصيّة خالد بن الوليد، كما يُستشفّ من قوله فيه: "وكان الوالد، رحمه الله، كثير المباشرة للحرب وفي بدنه جراح هائلة، وماتى على فراشه"(٣).

د-النّصح والإرشاد: وكتاب الإعتبار عامّة -كما يُستدلّ من اسمه- يؤدّي غاية تربوية أخلاقيّة دينيّة، فجميع الأحداث التي ذكرها في كتابه ترمي إلى هدف واحد هو استنتاج العبرة ممّا يرويه أو يحكيه، لذلك كانت معظم هذه الأخبار تنتهي بعظات أو عبرات متشابهة الدلالة، وإن جاءت مختلفة الصياغة، وهي تتّصل أساساً بالتعجّب "من كيفيّات تصريف الخالق لشؤون خلقه ومخلوقاته لإثبات حكمته وتعليق المصير الإنسانيّ والأفعال البشريّة بهذه الحكمة مطلقاً"(٤).

فأسامة لا يفتأ يردّد في كتابه: "فسبحان من نفذت مشيئته في خلقه يحيي ويميت وهو حيّ لا يموت بيده الخير وهو على كلّ شيء قدير،"فتبارك الله القادر على ما يشاء"(٥).

وانتهى بأسامة التأمل في المصير الإنسانيّ إلى استخلاص عبرة كبرى لخّصها في قوله: "فلا يظنّ ظانّ أنّ الموت يقدّمه ركوب الخطر، ولا يؤخّره شدّة الحذر، ففي بقائي أوضح معتبر"، و"أنّ ركوب أخطار الحروب لا يُنقص مدّة الأجل المكتوب"(٦)،

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٩٩

(٢) المرجع نفسه، ص٢١٣

(٣) المرجع نفسه، ص٥١، وانظر: ١٩٩،٢١٣، ٥١،٥٣،، ٥٦

(٤) المرجع نفسه، ص٢٧٣

(٥) المرجع نفسه، ص،٥٢،٤٢، ٦٩، ٨٤، ١٠٩. ١٥٠

(٦) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٢٠٩

وقد ظلّت هذه الفكرة مسيطرة على المادّة المسرودة في الكتاب، لذا كانت هذه المادة في تشابهها أو اختلافها وتنوّعها ترمي إلى تأكيدها وإثباتها.

الفصل الرابع
صورة الإفرنج في كتاب الإعتبار

١.٤ صورة الإفرنج في كتاب الإعتبار

قدمّ أسامة بن منقذ في كتابه الإعتبار صورة شاملة ومفصلة عن الإفرنج، بناها على أساس معرفي حيث أُتيحت له فرصة التواصل معهم في علاقات عديدة بوصفه مفاوضاً ومحارباً وصديقاً، وهذا الفصل سيتناول نظرة أسامة بن منقذ للإفرنج والانطباعات التي كونها عنهم، لكن قبل ذلك يجب الوقوف عند نقطتين رئيسيتن شكلتا المحور الرئيس في تكوين النظرة العامة والخاصة للإفرنج عند أسامة بن منقذ، وهما:

١. منزلة الفارس عند الإفرنج
٢. الإفرنج في الحرب

١.١.٤ منزلة الفارس عند الإفرنج:

لم يغفل أسامة بن منقذ منزلة الفارس عند الإفرنج، فقد أعطاه حقه كاملاً من وصف وتشبيه، ففي الوقت الذي تحدث فيه أسامة بن منقذ، عن بطولاته وأمجاده، وشجاعة المسلمين في معاركهم وغزواتهم لأعدائهم، فإنّه لم يغفل الجانب القومي والإيجابي على هذا الصعيد في الطرف الآخر، أي عند الإفرنج.

وقد لاحظ أسامة بن منقذ أن مكانه الفارس المرموقة عند الإفرنج يتم المحافظة عليها ولا تمس أبدا، حيث أورد أنّ الفارس يوضع بمنزلة الآمر الناهي والحاكم[١].
ولا يغفل أسامة بن منقذ، جانب القوة والشجاعة عند فرسانهم، فهو يصف طعنةً لأحد فرسانهم بالعظيمة "وشاهدت من الطعنات العظيمة طعنةً طعنها فارس من الإفرنج، خذلهم الله، فارسا من أجنادنا يقال له سابه بن قنيب ،كلابي قطع له ثلاثة أضلاع من

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٦٤

اليسار وثلاثة أضلاع من جانبه الأيمن، وضرب شفار الحربه مرفقه مفصله كما يفصل الجزار المفصل،ومات بساعته"[١].

وفي ذكر شجاعتهم يشير أسامة بن منقذ إلى فارسٍ من فرسان افاميه كيف تمكن أن يهزم أربعة فوارس من المسلمين[٢]، في معركة بين المسلمين وعسكر انطاكيه.

على الصعيد ذاته يرى أسامة بن منقذ أن الإفرنج كانوا يهتمون بأمر الفرسان من غيرهم أيضا. فهو يذكر أن الملك "فلك بن فلك"[٣] قال له عند لقائه في دمشق: يا فلان، وحق ديني لقد فرحت البارحة فرحا عظيما. قلت: الله يفرح الملك بماذا فرحت؟ قال: قالو لي انك فارس عظيم. وما كنت اعتقد انك فارس. قلت: يا مولاي، أنا فارس من جنسي وقومي) [٤].

كما حدّد ابن منقذ جانباً من الصفات الجسدية للفارس عند الإفرنج، مما يجعلهم يعجبون به كالطول والنحافة فيقول: "وإذا كان الفارس رقيقا طويلا فانه أعجب لهم"[٥].

وعند وصف شجاعتهم يقول ابن منقذ "ما فيهم غيرة ولا نخوه وفيهم الشجاعة العظيمة"[٦].

٢.١.٤ الإفرنج في الحرب

تجمّع الإفرنج من شمال وسط وغرب أوروبا، وقدموا إلى بلاد الشام هدفهم الرئيس كان الاستعمار والاستيطان وبسط النفوذ ونهب الثروات والخيرات والسيطرة على طرق التجارة بين الشرق والغرب. قَدِمَ الإفرنج تحت قيادة أمراء وفرسان بتحريض من السلطات الدينية آنذاك وطمعاً في تأسيس إماراتهم الخاصة وتكوين إقطاعية لكل

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٤٨

(٢) المرجع نفسه، ص٦٧– ٦٨

(٣) Fulk v تتوجّ ملكاً على اورشليم سنة ١١٣١.

(٤) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص ٨٤

(٥) المرجع نفسه، ص٦٥

(٦) المرجع نفسه، ص١٣٧

منهم في الأرض الجديدة، حيث كان عصر الإقطاع في أوروبا آنذاك، وذلك بعد ان يتم الاستيلاء عليها وتطهيرها من ساكنيها.منذ بداية الغزو ارتكب الإفرنج أبشع وأقذر الجرائم ضد المسلمين، وارتكبوا العديد من المجازر التي أرخ لها مؤرخوهم قبل غيرهم. هذه الأعمال البشعة تركت آثارها السلبية السيئة في نفوس وعقول المسلمين سكان الأرض وأهلها، فكونت عنهم صورة ترتبك بالإجرام.

ومن الأمثله على ما قام به الإفرنج من أعمال عام(١٠٩٨م)، بعد الانتهاء من معركة إنطاكية والسيطرة عليها، أحاط الإفرنج بالمعرة من كل جانب، وبعد المقاومة البطولية للسكان رأى وجهاء البلدة أنّ لا فائدة من استمرار مقاومتهم بعد أن دخل الغزاة إلى البلدة، فاتصلوا ببيمند صاحب إنطاكية الذي كان رأس المهاجمين ووعدهم بالإبقاء على حياتهم إذا هم أوقفوا القتال، وقبلوا بما وعدهم به. وكانت العائلات قد تجمعت في عدد من المباني طلباً للأمان، وعند الفجر كانت المذبحة[١].

هذه الأعمال والممارسات الفظيعة التي ارتسمت في عقول السكان بالمناطق المجاورة وانتقلت إلى المناطق الأخرى، هي التي دفعت أسامة بن منقذ الذي ولد قبل ثلاث سنوات من ارتكاب هذه المجزرة أن يكتب: " إذا خبر الإنسان أمور الإفرنج سبح الله تعالى وقدسه ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل"[٢]

ولا شك أن المذابح التي ارتكبها الإفرنج هي التي دفعت ابن منقذ ليلعنهم في كتابه " الإعتبار " المرة تلو الأخرى، وهي التي شكلت مصدراً لا ينضب للكراهية التي كان العرب والمسلمون يكنونها لهم.

رغم ذلك فإنّ أسامة بن منقذ لم يبخس الإفرنج حقهم ولم يقلل من شأنهم في الحرب، وأعطاهم المكانة التي يستحقونها سلباً أو إيجاباً، على ضوء نشاطاتهم وأعمالهم والظروف التي تمت بها وفي مختلف الحقب التي تناولها الكاتب.

---

(١) معلوف، آمين، الحروب الصليبية كما رآها العرب، دار الفارابي، بيروت، ١٩٩٣، ص٦٣

(٢) المرجع نفسه، ص٦٣

فعندما يصف معركة بيت جبريل[1]، وكيف انتصر الإفرنج فيها عليهم يقول "وقدر الله سبحانه وتعالى لنا بالسلامة باحترازهم، ولو كنَّا بعددهم وانتصرنا عليهم، كما نصروا علينا، كنَّا أفنيناهم"[2].

ويصفهم في هذه المعركة وما آلت إليه من نتائج أنهم " لعنهم الله، اكبر الناس احترازاً في الحرب، فصعدوا على رابية وقضوا عليها، وصعدنا نحن رابية مقابلهم. وبين الرابيتين فضاء. أصحابنا المنقطعون وأصحاب الخبائب عبور تحتهم، لا ينزل إليهم منهم فارس خوفاً من كمين أو مكيدة"[3] فقد أخذوا جانب الحذر والحيطة والاحتراز أن يكون المسلمون قد نصبوا لهم كميناً أو قد يكونون على اعدوا لهم مكيدة تلحق الخسائر بهم.

أولا: مظاهر السلوك اليومي عند الإفرنج

من المعروف أن أسامة بن منقذ الفارس والأمير والمؤرخ ولد قبل ثلاث سنوات من بدء الغزو الإفرنجي لبلاد الشام التي ولد وترعرع وعاش بها، ومنذ تكون الوعي عنده بالصغر شهد حروب الإفرنج وغزواتهم واحتلالهم لبلاده، وإهانتهم لمقدساته الدينية ولقومه، وارتكابهم أبشع المجازر ضد أهله وشعبه.

وعلى الرغم من كل ذلك فإنَّ أسامة بن منقذ كان حيادياً متوازناً حين كتب عنهم، بعيداً كل البعد عن التعصب للذات، رغم تغلغل هذا التعصب في النفس البشرية، إلا أنّنا نجده، قد قدم لنا صوره واقعيه عن طبائع وعادات الإفرنج، التي شكلت جوهر سلوكهم وأسلوب حياتهم.

ورغم عدم إنكارأسامة بن منقذ لما هو إيجابي وحسن إلاأنَّه لم يبد أي إعجاب بسلوكهم وطبائعهم ولم يدعمها وإنما وصفها بالقسوة والفظاظة والجفاء[4]. فهو يستعرض كيف حاول واحدا من الإفرنج في بيت المقدس ثنيه عن الصلاة كما تقتضي

---

(١) بيت جبريل أو جبرين: الحموي، انظر معجم البلدان، ج١، ص٧٧٦. أما عن مدينة يبنى فقد أخبرني الأخ عابد المشوخي الغزي أنها ما زالت عامرة، ولكنها بيد اليهود وتقع إلى الشمال من عسقلان، ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٢١

(٢) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٢١

(٣) المرجع نفسه، ص٢١

(٤) المرجع نفسه، ص١٣٤

الشريعة الإسلامية بالتوجه ناحية القبلة باتجاه البيت الحرام في مكة المكرمة، فيقول: "فمن جفاء أخلاقهم قبّحهم الله ، أنني كنت إذا زرت بيت المقدس دخلت إلى المسجد الأقصى وفي جانبه مسجد صغير قد جعله الإفرنج كنيسة، فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى وفيه الراوية، وهم أصدقائي، يخلون لي ذلك المسجد الصغير اصلي فيه. فدخلته يوما فكبرت ووقفت في الصلاة، فهجم عليّ واحد من الإفرنج فمسكني وردّ وجهي إلى الشرق، وقال: كذا صل، فبادر إليه قوم من الراية أخذوه أخرجوه عني. وعدت أنا إلى الصلاة . فاغتفلهم وعاد هجم علي ذلك بعينه ورد وجهي إلى الشرق، وقال: كذا صلِّ. فعاد الراوية دخلوا إليه وأخرجوه، واعتذروا لي، وقالو: هذا غريب وصل من بلاد الإفرنج هذه الأيام، وما رأى من يصلي إلى غير الشرق. فقلت: حسبي من الصلاة. فخرجت فكنت أعجب من ذلك الشيطان وتغير وجهه ورعدته وما لحقهم من نظر الصلاة إلى القبلة"[١].

وعن مثل هذا السلوك بالجانب الديني فانه ينقل لنا شهادة أخرى دينية تؤكد مدى القسوة والفظاظة وعدم إحترام الأديان الأخرى،ورأيت واحدا منهم جاء إلى الأمير معين الدين، رحمه الله، وهو في الصخرة فقال: تريد تبصر الله صغيرا ؟ قال: نعم. فمشى بين أيدينا حتى أرانا صوره مريم والمسيح عليه السلام صغيراً في حجرها، فقال: هذا الله صغير تعالى الله عما يقول الكافرون علوا كبيرا[٢].

كما يشير أسامة إلى استيائه الشديد عندما يستعرض بعضا من أنواع وأشكال عدالتهم التي يتعاملون بها، فهي تختلف جذريا عن العدالة التي كان يعيشها العرب في ذلك الوقت، والقائمة على أساس وجود القاضي والشهود والبينات والأدلة في أي قضيه يتم استعراضها بين متخاصمين، وحق الإنسان في الدفاع عن نفسه، وبالتالي إصدار الحكم على الأسس والقواعد المبينة في الشريعة الإسلامية،عن عدالة الإفرنج ينقلأسامة بن منقذ احد أشكالها مما شاهده في نابلس، فيقول: "شهدت يوما بنابلس وقد

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٣٤-١٣٥

(٢) المرجع نفسه، ص١٣٥

احضروا اثنين للمبارزة وكان سبب ذلك أن حرامية من المسلمين كبسوا ضيعه من ضياع نابلس فاتهموا بها رجلاً من الفلاحين، وقالوا هو دل الحراميه على الضيعه. وهرب فنفذ الملك فتبعه أولاده. فعاد إليه وقال: انصفني. أنا ابارز الذي قال عني أني دللت الحرامية على القرية. فقال الملك لصاحب القرية المقطع: احضر من يبارزه. فمضى إلى قريته وفيها رجل حداد فأخذه وقال له: تبارز إشفاقا من المقطع على فلاحيه لا يقتل منهم واحد فتخرب فلاحته فشاهدت هذا العداء، وهو شاب قوي إلا أنَّه قد انقطع، يمشي ويجلس يطلب ما يشربه، وذلك الأخر الذي طلب البراز شيخ إلا انه قوي النفس يزجر، وهو غير محتفل بالمبارزة. فجاء البسكند، وهو شحنه البلد، فأعطى كل واحد منهما العصا والترس،وجعل حولهم حلقه .والتقيا فكان الشيخ يلز ذلك الحداد،وهو يتأخر حتى يلجئه إلى الحلقة،ثم يعود إلى الوسط .وقد تضاربا حتى بقيا كعمود الدم . فطال الآمر بينهما والبسكند يستعجلهما وهو يقول بالعجلة. ونفع الحداد إدمانه بضرب المطرقة. وأعيي ذلك الشيخ. فضربه الحداد، فوقع، ووقعت عصاه تحت ظهره. فبرك عليه الحداد يداخل أصابعه في عينيه ولا يتمكن من كثره الدم من عينيه. ثم قام عنه وضرب رأسه بالعصا حتى قتله. فطرحوا في رقبته في الوقت حبلا وجروه وشنقوه. وجاء صاحب الحداد أعطاه غفارته وأركبه خلفه وأخذه وانصرف"(١).

ومن طبائعهم التي أثارت الاشمئزاز في نفس أسامة بن منقذ، هو أسلوبهم بالتعذيب بالماء والكي بالنار فيقول: "ومضيت مره مع الأمير معين الدين، رحمه الله، إلى القدس، فنزلنا نابلس. فخرج إلى عنده رجل أُعمي، وهو شاب عليه ملبوس جيد مسلم، وحمل له فاكهه وسأله في أن يأذن له في الوصول إلى خدمته إلى دمشق، ففعل. وسالت عنه فخبرت أن أمه كانت مزوجّه لرجل إفرنجي، فقتلته. وكان ابنه يحتال على حجاجهم ويتعاون هو وأمه على قتلهم ،فاتهموه ذلك وعملوا له حكم الإفرنج: "جلسوا بتيه عظيمه وملأوها ماء وعرضوا عليها دف خشب، وكتفوا ذلك المتهم وربطوا في كتفه حبلا ورموه في البتيَّة – فان كان بريا غاص في الماء فرفعوه بذلك الحبل لا يموت في الماء، وان كان له ذنب ما يغوص في الماء. فحرص ذلك

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص ١٣٨-١٣٩

لما رموه بالماء أن يغوص فما قدر، فوجب عليه حكمهم، لعنهم الله، فكحلوه " [1] "أي أنهم اطفوا نور عينيه بقضيب من فضه محمى بالنار، مما يفقده نظره". ومن الحوادث التي شهدها أيضا ابن منقذ والتي تظهر طباعهم وعادتهم في أعيادهم يروي ما شاهده من ألعاب بعيد لهم في طبريا: " حضرت بطبرية في عيد من أعيادهم، وقد خرج الفرسان يلعبون بالرماح. وقد خرج معهما عجوزان فانيتان أوقفوهما في راس الميدان، وتركوا في رأسه الأخر خنزير اسمطوه وطرحوه على صخره. وسابقوا بين العجوزين ومع كل واحدة منهن سربة من الخيالة يشدون منها، والعجائز يقمن ويقعدن على كل خطوه، وهم يضحكون، حتى سبقت واحده منهن. فأخذت ذلك الخنزير في سبقها"[٢].

رغم هذه التصرفات التي رأى فيها أسامة بن منقذ، شكلا من أشكال الجفاء والغلظة في التعامل مع الآخرين وسلوك غير لائق، فإنَّه يرى أيضا بأنّ الإفرنج قديمو العهد قد تغيرت الكثير من عاداتهم وطباعهم التي أتوا بها من بلادهم الأوروبية، فيقول: "ومن الإفرنج قوم تبلدوا وعاشروا المسلمين فهم أصلح من القريب العهد ببلادهم، ولكنهم شاذ لا يقاس عليه"[٣]. ويروي حادثه أخرى ، كيف أن بعضا من الإفرنج لم يعودوا يأكلون لحم الخنزير[٤].

ثانيا: الفساد الخلقي عند الإفرنج

من الانطباعات الهامة التي كونها أسامة بن منقذ،خلال تجواله وترحاله بين دمشق والقدس ومروره بالعديد من المناطق والمدن التي كان يسيطر عليها الإفرنج، ومكوثه فيها للراحة، تعرف على عديدٍ من العادات السائدة بينهم والمتأصلة في نفوسهم والتي جاءت معهم من بلدانهم التي قدموا منها.

فنجد أسامة بن منقذ يروي عدة حوادث شاهدها في علاقاتهم على الصعيد الأخلاقي واستنكرها أشد الاستنكار ومن هذا تبلدهم وعدم غيرتهم الجنسية وإنحطاط أخلاقهم وفي ذلك يورد: "وليس عندهم شيء من النخوة والغيرة، يكون الرجل منهم

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٣٩-١٤٠

(٢) المرجع نفسه، ص١٣٨

(٣) المرجع نفسه، ص١٤٠

(٤) المرجع نفسه، ص١٤٠

يمشي هو وامراته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة يعتزل بها ويتحدث معها، والزوج واقف ناحيــة ينتظــر فراغهــا مــن الحــديث. فــإذا طولــت عليــه خلاهــا مــع المتحــدث ومضى"[1].ويورد أيضاً "ومما شاهدت من ذلك أني كنت إذا جئت إلى نابلس أنزل في دار رجل يقال له معز داره عماره للمسلمين لها طاقات تفتح على الطريق ويقابلها من جانب الطريق الآخر دار لرجل إفرنجي يبيع الخمر للتجار يأخذ في قنينه من النبيذ وينادي عليه ويقول: فلان التاجر فتح بتيه من هذا الخمر. من أراد منها شيئا فهو في موضع كذا وكذا. وأجرته عن ندائه النبيذ الذي في تلك القنينه. فجاء يوما ووجد رجلا مع امرآته في الفراش فقال له: أي شيء أدخلك إلى عند امرأتي ؟قال:كنت تعبان دخلت أستريح. قال: فكيف دخلت إلى فراشي؟قال:وجدت فراشاً مفروشاً نمت فيه. قال: والمرأة نائمة معك؟ قال: الفراش لها. كنت أقدر أمنعها من فراشها؟ قال: وحق ديني، إن عدتَّ فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت.فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته." [2].

ويورد أيضاً: "كان عندنا رجل حمامي يقال له سالم في أهل المعرة في حمام لوالده، رحمه الله. قال: فتحت حماما في المعرة أتعيش فيها. فدخل إليها فارس منهم، وهم ينكرون على من يشد في وسطه المئزر في الحمَّام، فمدَّ يده فجذب مئزري من وسطي رماه. فرآني، وأنا قريب عهد بحلق عانتي، فقال: "سالم " فتقربت منه. فمد يده على عانتي وقال: " سالم، جيد! وحق ديني اعمل لي كذا وأستلقى على ظهره وله مثل لحيته في ذلك الموضع. فحلقته فمد يده عليه فاستو طاه. فقال: سالم. بحق دينك إعمل للداما، (والداما بلسانهم الست) يعني امرأته. وقال لغلام له: قل للداما تجيء. فمضى الغلام احضرها وأدخلها، فاستلقت على ظهرها وقال: اعمل كما عملت لي ،فحلقت ذلك الشعر وزوجها قاعد ينظرني. شكرني ووهبني حقّ خدمتي"[3] وللدلالة على المفارقة بين أخلاقهم وأخلاق العرب في جانب السلوك الأخلاقي يقول ابن منقذ: "ومما يقارب هذا أني دخلت الحمام بمدينه صور، فجلست في خلوه فيهم. فقال لي

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٣٥

(٢) المرجع نفسه، ص١٣٦

(٣) المرجع نفسه، ص١٣٦-١٣٧

بعض غلماني في الحمام: معنا امرأة. فلما خرجت جلست على المساطب وإذا التي كانت في الحمام قد خرجت وهي مقابلي قد لبست ثيابها وهي واقفة مع أبيها ولم أتحقق أنها امرأة . فقلت لواحد من أصحابي: بالله أبصر هذه امرأة هي. وأنا اقصد أن يسال عنها. فمضى وأنا أراه، رفع ذيلها وطلع فيها. فالتفت إلي أبوها وقال: هذه ابنتي ماتت أمها وما لها من يغسل رأسها فأدخلتها معي الحمام غسلت رأسها قلت: جيد هذا لك ثواب." (١)

ويستعجب أسامة بن منقذ،كيف تجتمع الشجاعة مع إنعدام الغيره والنخوه والشهامة، فيقول: "فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم: ما فيهم غيره ولا نخوه وفيهم الشجاعة العظيمة. وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والأنفة في سوء الأحدوثة(٢).

ثالثاً: تخلف الإفرنج

أشار المؤرخون جميعهم إلى أن الإفرنج في القرن الثاني عشر حينما إبتدأت حملاتهم ضد بلاد الشام كانوا متأخرين جدا عن العرب المسلمين في ميادين المعرفة كلها. وقد تناولاسامة بن منقذ، بعضاً من جوانب تخلف الإفرنج في هذه الميادين وخاصة في الطب، حيث كان الطب عند العرب متقدماً أكثر مما هو عند البلدان الأوروبية التي قدم منها الغزاة الإفرنج. و يمكن القول إن الطب كان عندهم يتصف بالبدائية في ذلك الوقت.

وفي هذا يقول ابن منقذ: "ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة(٣) كتب إلى عمي يطلب منه إنقاذ طبيب يداوي مرض من أصحابه. فأرسل إليه طبيبا نصرانياً يقال له ثابت. فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له: ما أسرع ما داويت المرض! قال: احضروا عندي فارسا فقد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها غشاف. فعملت للفارسي لبخة ففتحت الدملة وصلحت. وحميت المرأة ورطبت مزاجها. فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم: هذا ما يعرف شي يداويهم. وقال للفارس: أيما أحب إليك تعيش

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٣٧

(٢) المرجع نفسه، ص١٣٧

(٣) المنيطرة تقع عند منبع نهر إبراهيم في شمال لبنان، انظر: المرجع نفسه، الحاشية، رقم(٣)، ص١٣٢

برجلي واحدة أو تموت برجلين؟ قال: أعيش برجل واحدة. قال: احضروا لي فارسا قويا وفأسا قاطعاً. فحضر الفارس والفأس، وأنا حاضر، فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس: أضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها. فضربه، وأنا أراه، ضربة واحدة ما انقطعت، ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق، ومات من ساعته . وأبصر المرأة فقال:هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها. احلقوا شعرها. فحلقوه. وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل فزاد بها النشاف. فقال: الشيطان قد دخل في رأسها. فأخذ الموس وشق رأسها صليبا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح. فماتت في وقتها. فقلت لهم: بقي لكم إلي حاجة؟ قالوا: لا فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن اعرفه"(١).

وكما أشرنا منذ البداية فإن أسامة بن منقذ إمتاز بالعدل والإنصاف في تدوين ما رآه، فقد آشار إلى جانب معرفي إجابي بالرغم ما ذكره من سلبياتهم فيقول: "وقد شاهدت طبهم خلاف ذلك. كان للملك خازن من فرسانه يقال له برنارد، لعنه الله، من ألعن الإفرنج، وأرجسهم. فروحه حصان في ساقه فعملت عليه رجله وفتحت في أربعة عشر موضعا. والجراح كلما ختم موضع فتح موضع. وأنا ادعو بهلاكه. فجاء طبيب من الإفرنجي وأزال عنه تلك المراهم وجعل يغسلها بالخل الحاذق. فخمت تلك الجراح وبرا وقام قتل الشيطان"(٢).

وأشار أسامة لسذاجة تفكيرهم فقد أورد،أنّ صديقاً إفرنجياً له عرض عليه أن يأخذ ابنه معه إلى أوروبا ليتعلم هناك الفروسية وغيرها فيقول: "كان في عسكر الملك فلك بن فلك فارس محتشم إفرنجي فتوصل قد وصل من بلادهم يحج ويعود. فأنس إليه وصار ملازمي يدعوني أخي، وبيننا المودة والمعاشرة. فلما عزم على التوجه في البحر إلى بلاده قال لي: يا أخي، أنا سائر إلى بلادي، وأريدك أن تنفذ معي ابنك (وكان ابني معي وهو ابن أربع عشرة سنة) إلى بلادي يبصر الفرسان ويتعلم العقل

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٧٢

(٢) المرجع نفسه، ص١٧٢

والفروسية. وإذا رجع كان مثل رجل عاقل. فطرق سمعي كلام ما يخرج من رأس رجل عاقل. فان ابني لو اسر ما بلغ به الأسر أكثر من رواحه إلى بلاد الإفرنج"[١].

ويواصل أسامة بن منقذ، انتقاد جهلهم وسخافة تفكيرهم بجوانب عديدة فيستعرض كيف طالبوا بثمن حصان مات بعد سنة من إستملاكه، فيقول:" وكان من طريف ما جرى في ذلك الحصان أن أخي عز الدولة أبا الحسن عليا، رحمه الله، اشتراه من كامل المشطوب، وكان ثقيل العدو، فأخرجه في ضمان القرية كان بيننا وبين فارس من الإفرنج كفر طاب. فبقي عنده سنة ثم مات. فأرسل إلينا يطلب ثمنه. قلنا: اشتريته وركبته. ومات عندك. كيف تطلب ثمنه؟. قال: انتم سقيتموه شيئا يموت منه بعد سنة". فعجبنا من جهله وسخافة عقله"[٢].

رابعا: العلاقات الإجتماعية بين المسلمين والإفرنج

خلال فترة الحروب الصليبية التي شنها ملوك وأمراء أوروبا ضد بلاد الشام ومصر، التي قاربت فترتها الزمنية المائتي عام، لم تكن كلها حروباً وغارات وسلب ونهب.

ففي المراحل الأولى لهذه الحرب ارتكبت الإفرنج أعمال بطش وترويع ضد السكان المحليين بلا رحمة، وبعد أن استتب الأمر لهم في معظم المناطق ببلاد الشام وما تحقق من السلام والمهادنة بين المحتلين والسكان المحليين، تكونت علاقات إجتماعية استعرضها عدداً من المؤرخين في تلك الحقبة وصفوها، بالصداقة والود.

فقد كانت تتم زيارات بين القادة بعضهم لبعض ويتبادلون الهدايا، والمشاركة بالأعياد والمهرجانات وسباق الخيل والصيد وإطلاع كل طرف منهما للطرف الآخر على المهارات المتنوعة والتي إمتازوا بها. وفي هذا تحدث أسامة بن منقذ عن العلاقات بين الإفرنج والمسلمين، خاصة أنه كان يقوم بزيارات متكررة لعدد من الملوك والأمراء الإفرنج، وقيامِهِ بمهام دبلوماسية عديدة وتنقله بين المدن والمناطق المختلفة.

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٣٢

(٢) المرجع نفسه، ص٩٧

يقول أسامة بن منقذ متحدثا عن نفسه: "كنت أتردد إلى ملك الإفرنج للصلح بينه وبين جمال الدين محمد بن تاج رحمه الله ،ليد كانت للوالد، رحمه الله، على بلدوين الملك والد الملكة امرأة الملك فلك بن فلك".(١) واضح من هذا النص أن والد ابن منقذ سبق أن أسدى للملك بغدوين معروفا، يسمح لابنه أسامة أن يتردد على ابنته الملكة وزوجها الملك فلك بن فلك بمهمات دبلوماسية والتوسط بينهم وبين الأمراء العرب. وفي مكان آخر من "الإعتبار" يروي أسامة بن منقذ، حادثه تشير إلى علاقات ودية كانت تربط بين العديد من قاده الإفرنج وقاده العرب والمسلمين فيقول: "وذلك أن جوسلين أغار على الرقة والقلعة، فاخذ كل ما عليها وسبى وساق غنائم كثيرة ونزل مقابل القلعة وبينهم الفرات. فركب نجم الدولة مالك في زورق ومعه ثلاثة أربعه من غلمانه، وعبر الفرات إلى جوسلين"(٢)، وبينهما معرفة قديمة، ولمالك عليه جميل. وظن جوسلين أن في الزورق رسولا من مالك. فجاءه واحد من الإفرنج وقال: هذا مالك في الزورق. قال: ما هو صحيح. فأتاه أخر قال: نزل مالك من الزورق وهو جاءني يمشي. فقام جوسلين والتقاءه وأكرمه ورد عليه جميع كان أخذه من الغنائم والسبي "ويواصل مؤكداً"ولولا سياسة نجم الدولة كان خرب بلدة"(٣).

كما أنَّ الزيارات المتكررة التي كانت يقوم بها أسامة بن منقذ منفرداً أو بمرافقه أمراء من المسلمين للقدس وغيرها من المدن والمناطق التي كان يسيطر عليها الإفرنج، جعلته يقيم علاقات صداقه مع أمراء وفرسان الإفرنج. ويشاركهم مناسباتهم واحتفالاتهم، "حضرت في طبريا في عيد من أعيادهم وقد خرج الفرسان يلعبون بالرماح"(٤). كما يشير أسامة لعلاقات حميمة بينه وبين فرسانهم أيضاً،حتى تعدى الأمر ليدعو كل منهما الأخر بـ"أخي" يقول: "كان في عسكر الملك فلك بن فلك فارس محتشم إفرنجي قد وصل من بلادهم يحج ويعود. فأنس إليه وصار ملازمي يدعوني "

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٨١

(٢) هو جوسلين joscelin صاحب تل باشر إذ ذاك

(٣) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٩١

(٤) المرجع نفسه، ص١٣٨

أخي"، وبيننا المودة والمعاشرة"[1]. كما تحدث ابن منقذ عن علاقات صداقه قديمه بين والده وعمه وبغدوين، فيقول: " ثم ملك بغدوين البرونس انطاكيه، وكان لأبي وعمي، رحمهما الله عليه جميل كبير حيث كان أسره نور الدولة بلك، رحمه الله. وصار بعد قتل بلك إلى حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي، فحمله إلينا إلى شيزر ليتوسط أبي وعمي رحمهم الله بيعه. فأحسن إليه. فلما ملك كانت لصاحب انطاكيه علينا قطيعه سامحنا بها. وصار أمرنا في انطاكيه نافذا"[2].

كما أنّ أسامة بن منقذ لم يتردد بإطلاق صفة "الأصدقاء " على الداويه، لأنه يقدر أن " عاداتهم البربرية قد تهذبت باحتكاكهم بالشرق. باحدى رواياته أنّ صديقاً له إفرنجيًا لا يأكل لحم الخنزير، وأشاد بصديق آخر آنقذ حياته وقد أورد ذلك بقوله: " فانا بعد مجتازا في السوق وامرأة إفرنجية تعلقت بي وهي تبربر بلسانهم وما ادري ما تقول. فاجتمع علي خلق من الإفرنج، فأيقنت بالهلاك، وإذا ذلك الفارس قد أقبل فرآني. فجاء فقال: لتلك المرآة. ما لك ولهذا المسلم؟ قالت: هذا قتل أخي عرس، وكان هذا عرس فارسا بافاميه قتله بعض جند حماه. وصاح عليها وقال: هذا رجل برجاسي (أي تاجر) لا يقاتل ولا يحضر القتال. وصاح على أولئك المجتمعين، فتفرقوا واخذ بيدي ومضى"[3].

ويمكن أن نلحظ أنّ أسامة بن منقذ قد أورد بعض الروايات إستنكر فيها بعض العادات التي إتصف بها الإفرنج كعدم وفائهم بالوعد وعد إلتزامهم بالعهد. فقد روى واقعة تؤكد هذا وخلاصتها أن أمير إنطاكية الصليبي تنكريد[4]، كان قد أعجب إعجاباً شديداً بمهارة أحد الفرسان المسلمين، وأسمه حسنون،في سباق للخيل جرى أمامه، وأكرمه غاية الإكرام وحاول حسنون الإفادة من إعجاب تنكري دبه فطلب منه أن يعطيه أماناً بأن يطلق سراحه إذا وقع يوماً ما أسيراً بيده،فأعطاه ما طلب. وشاءت الأقدار أن يقع حسنون بعد سنة أسيراً بيد هذا الأمير الصليبي .لكن الأمير لم يوف

([1]) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٥٤

([2]) المرجع نفسه، ص١٧٢

([3]) المرجع نفسه، ص١٤٠

([4]) هو تنكرد Tancred الذي خلف بومند الأول على أنطاكية وهاجم شيزر وقرر عليها عشرة آلاف دينارفي سنة ٥٠٣هـ

بوعده، بل عندما أراد رجاله قلع عينه اليسرى قال لهم تنكريد: اقلعوا عينه اليمنى إذا حمل الترس استترت عينه اليسرى فلا يبقى يبصر شيئاً فقلعوا عينه اليمنى كما أمرهم"[١].

خامساً: المسلمون في البلاد المحتلة

من المتعارف عليه بالتاريخ أن الشعوب التي تتعرض للغزووالإحتلال يتعرض أهلها لكثير من الإضطهاد والإستغلال والقتل والتنكيل به، من قبل القوات المحتلة،كما يفرض الغزاة قوانينهم وما يتناسب من تقسيمات إدارية متنوعة تخدم مصالحهم وأهدافهم.

وعندما تعرضت بلاد الشام لغزوالإفرنج، تعرض السكان لأبشع وأقسى أشكال التنكيل والقتل، وارتكب بحقهم أبشع المجازر.

ولم يستعرض أسامة بن منقذ في كتابه " الإعتبار" هذه الممارسات بشكل مباشر، ولم يفرد لها باباً خاصاً ولا حتى عنواناً فرعياً، لكن هذا لا يعني أنّ أسامة بن منقذ كان راضياً عن ممارسات الإفرنج والأعمال الفظيعة التي ارتكبوها ضد المسلمين. فقد عبر بأكثر من مكان وبأكثر من أسلوب عن كراهيته لهم، حيث لقبهم بالشياطين "وذلك أن إنطاكية كانت لشيطان من الإفرنج يقال له روجار"[٢].

ويقول أيضا: "تعالى الله عما يقول الكافرون علوا كبيرا"[٣].

واستنزل لعنة الله عليهم في كثير من المواضع. والدعاء إلى الله تعالى أن يطهر الدنيا منهم[٤]. ولقد سبق له أن شبههم بالبهائم[٥].

ولم يستعرض أسامة بن منقذ، الأساليب التي كان يتعامل بها فرسان الإفرنج مع المسلمين، لكن القسوة هي السمة العامة لهذه المعاملة، من الناحية الإدارية كان

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٨٨-٨٩

(٢) روجر Roger ابن أخت تنكردالذي ملك أنطاكية سنة ٥٠٦هـ ودام حكمه إلى سنة ٥١٣هـ وقد قتل في وقعة البلاط، ابن منقذ، كتاب الإعتبار، الحاشية، ص٩٩

(٣) المرجع نفسه، ص١١٨

(٤) المرجع نفسه، ص١٣٥

(٥) المرجع نفسه، ص١٣١

ألبسكند هو الآمر الناهي في الإقطاعية أو المنطقة الخاضعة له وهو الذي يقرر نوع العقوبة[1].

وكان الإفرنج يحاولون فرض عاداتهم وطبائعهم التي جبلوا عليها في بلادهم على المسلمين الواقعين تحت احتلالهم، وأكد أسامة بن منقذ بروايته ما جرى له أثناء صلاته في بيت المقدس وكيف حاول أحد الإفرنج مرتين تغيير اتجاه القبلة[2]. وفي مكان آخر يروي أسامة بن منقذ ما حصل لرجل حمامي في المعرة يقول: " ومن ذلك انه كان عندنا رجل حمامي يقال له سالم من أهل المعرة في حمام لوالدي رحمه الله. قال: فتحت حماما في المعرة أتعيش بها فدخل إليها فارس منهم، وهم ينكرون على من يشد في وسطه المئزر في الحمام، فمد يده فجذب مئزري من وسطي رماه، فرآني وأنا قريب عهد بحلق عانتي..."[3].

من الواضح أن ما أقدم عليه الفارس الإفرنجي هو من صميم عاداتهم الإفرنجية الغريبة عند العرب والمسلمين والمحّرمة بالأصل حيث إنهّا تكشف عورة الرجل التي لا يجوز كشفها أمام الآخرين، لكن القوة هي التي أعطتهم الحق بممارسة مثل هذه الأعمال المشينة والمذلة لشعب تحت الاحتلال.

كما إنّ المسلمين تحت حكم الإفرنج كانوا يتعرضون للأحكام القاسية التي تصل حتى تكحيل عيونهم، أي إفقادهم البصر[4].

وحياة المسلم كانت مهددة دائما بالخطر المميت فادعاء أي إفرنجي عليه بأي شيء يعتبر سبباً كافياً لقتله أو تغريمه وإيقاع أشد العقوبات به. وفي هذا يروي قصة أحد أصدقائه وكيف ادّعت عليه امرأة إفرنجية أنه قاتل أخيها عرس وكيف تجمعوا عليه وكادوا يقتلوه لولا شهادة فارس منهم "هذا رجل برجاسي أي تاجر لا يقاتل ولا يحضر قتال"[5].

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٣٩

(٢) المرجع نفسه، ص١٣٤

(٣) المرجع نفسه، ص١٣٤

(٤) المرجع نفسه، ص١٣٩

(٥) المرجع نفسه، ص١٤١

ونظراً للظروف القاسية التي فرضت على المسلمين آنذاك يشير أسامة بن منقذ، غلأى تعاون بعض الأشخاص مع الإفرنج أعمال التنكيل والغدر والنهب التي كان يتعرض لها المسلمون فهو يقول: "فلما قتل ابن ملاعب[١] انتقل علي ابن أبي الرداء إلي خدمة توفيل الإفرنجي صاحب كفر طاب. فكان ينهض بالإفرنج إلى المسلمين يغنمهم ويبالغ في أذى المسلمين واخد مالهم وسفك دمهم حتى قطع سبل المسافرين"[٢].

سادساً: تأثر الإفرنج في المسلمين

جاء الإفرنج من بلدانهم حاملين معهم ثقافة بلادهم (عادات وتقاليد)، التي تشكلت ضمن ظروف حياتهم الخاصة عبر التاريخ، كما هو الحال بالنسبة لكل الحضارات الإنسانية المختلفة.

قدم الإفرنج إلى البلاد الإسلامية ومعهم مطامعهم وطموحاتهم للسيطرة عليها وبسط نفوذهم فيها واستملاكها. الا أنّهم تفاجئوا بحضاراتها وثقافتها بدرجات كبيرة.

بعد أن هدأت حدة المعارك التي خاضها الإفرنج وما ارتكبوه من مجازر وأعمال فظيعة ضد السكان العرب والمسلمين، أخذ الإفرنج ينظمون حياتهم ضمن المعطيات الجديدة،والتأقلم مع طبيعة الحضارة العربية الإسلامية وعاداتها وتقاليدها كل منهم حسب معتقداته وفكره.

وفي كتاب الإعتبار نجد أسامة بن منقذ، يتناول بعض جوانب تأثر الإفرنج بالعادات والتقاليد العربية، فيقول: "ومن الإفرنج قوم تبلدوا وعاشروا المسلمين فهم أصلح من القريب العهد ببلادهم، ولكنهم شاذ لا يقاس عليه"[٣].

ولكن هذا لم يمنع أسامة من أن فيقول: " نفذت صاحب إلى إنطاكية في شغل، وكان بها الرئيس تادرس بن الصيفي وبيني وبينه صداقة، وهو نافذ الحكم في إنطاكية فقال لصاحبي يوما" قد دعاني صديق لي من الإفرنج، يجيء معي حتى ترى

---

(١) خلف بن ملاعب الكلابي، كان متغلباً على حمص وكان رجاله يقطعون الطريق فكثر الحرامية عنده. فأخذه منه تتش بن ألب ارسلان. واستولى ابن ملاعب على حصن أفامية بمساعدة الفاطميين وأقام به يخيف السبيل ويقطع الطريق. انظر: ابن الأثير، الكامل بالتاريخ، ج١٠، ص٤٠٤-٤١٠

(٢) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٢٨

(٣) المرجع نفسه، ص١٤٠

زيَّهم. قال: فمضيت معه فجئنا إلى دار فارس من الفرسان العتق الذين خرجوا من أول خروج الإفرنج، وقد اعتفى من الديوان والخدمة وله بأنطاكية ملك يعيش فيه. فأحضر مائدة حسنة وطعاماً في غاية النظافة والجودة. وراني متوقفاً عن الأكل فقال: كل وراني متوقفاً عن الأكل، فقال: كل طيب النفس، فأنّا ما آكل من طعام الإفرنج. ولي طباخات مصريات ما آكل إلا من طبيخهن ولا يدخل داري لحم الخنزير"[١].

لكنه لم يتعرض لتأثرالعرب بحضارة وثقافتهم الإفرنج. فهو لم ير فيهم فضيلة حميدة غير شجاعتهم في الحرب[٢].

---

١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٤٠

٢) المرجع نفسه، ص١٣٢

الفصل الخامس

البناء الفني لكتاب الإعتبار

١.٥ البناء الفني لكتاب الإعتبار

١.١.٥ مستويات الأداء اللغوي في كتاب الإعتبار:

كتب أسامة بن منقذ كتابه الإعتبار ،بطريقة مغايرة،إذ جعل من لغة الكتاب دعامة أساسية من دعائم بناء الروايات والقصص التي نقلها للقارىء ويمكن أن نميز بين الظواهر التالية في كتاب الإعتبار:

١. الأداء اللغوي: يمكن أن نميز في كتاب الإعتبار بين مستويين من الأداء اللغوي هما:

أ. المستوى التداوليّ ب. المستوى الفصيح

أما المستوى التداولي فيقصد به استعمال الألفاظ والتراكيب العامية التي شاعت على ألسنة الناس آنذاك، وحكاية الأنماط اللغويّة التّي يتداولها الناس. ويمكن أن نحصر كثيراً من الألفاظ المتداولة ذات الأصول الأعجمية، ويمكن أن نقسمها حسب حقولها الدلالية إلى المجالات التالية:

أ. ألفاظ السلاح

ب. ألفاظ الصيد

ج.ألفاظ الحياة الاجتماعية

وقد كثر استخدام الألفاظ الدالة على السلاح لطبيعة العصر من ناحية، وطبيعة حياة أسامة من ناحية أخرى، فالعصر عصر حروب وأسامة فارس من فرسان هذه الحروب متمرس بها وبأسلحتها. ومن الأمثلة على آلفاظ السلاح:

١. كزاغند، سترة تقوم مقام الدرع، وقد ورد في قوله:"..وهو لابس كزاغند"[١]

٢. دشني: او دشن. فارسية بمعنى الخنجر، وقد ورد في قوله: "..وفي ساقه دشنيّ"[١]

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٦٧

(١) المرجع نفسه، ص٦٧

كما تسربت الى كتاب الإعتبار بعض الألفاظ الأعجمية ذات الدلالات الإجتماعية نتيجة للحروب، واختلاط أسامة بن منقذ بالإفرنج وغيرهم. ومن هذه الالفاظ على سبيل المثال:

٣. الداما: ولعلها ترادف لفظاً ومعنىً كلمة المدام اليوم."...فقال، سالم، بحق دينك إعمل للداما (والداما بلسانهم الستّ)..." [١].

٤. البرجاسية: ويقصد بها طبقة التجار ولعلها تقابل كلمة البرجوازية اليوم، وذلك في قوله: " فأنا بعد مجتازاً في السوق وامرأة إفرنجية تعلقت بي وهي تبربر بلسانهم وما أدري ما تقول. فاجتمع علي خلق من الأفرنج فأيقنت من الهلاك. وإذا ذلك الفارس قد أقبل فرآني، فجاء فقال لتلك المرأة مالك ولهذا المسلم؟ قالت هذا قتل أخي عرس، وكان هذا عرس فارساً بأفامية قتله بعض جند حماة. فصاح عليهم وقال هذا رجل برجاسي أي تاجر لا يقاتل ولا يحضر قتال وصاح على أولئك المجتمعين، فتفرقوا وأخذ يدي ومضى[٢].

٥. البرنس:ويقصد بهاالأمير وورد ذلك في قوله:"ثم ملك بغدوين البرونس أنطاكية." [٣]

٦. تركبولي: وهي تعريب Turcopole وهم جند في خدمة الافرنج آباؤهم اتراك وورد ذكرهم بقوله:" وقد كان جرى لنا مثل ذلك وهو ان فلاحاً من العلاة جاء يركض إلى أبي وعمي رحمهما الله، قال شاهدت سرية إفرنج تائهين قد جاءوا من البرية لو خرجتم إليهم أخذتموهم فركب ابي وعمي خرجوا بالعسكر إلى السربه التائه وإذا به السرداني صاحب طرابلس في ثلاثمائة فارس ومائتين تركبولي وهم رماة الإفرنج[٤].

٧. البطرك: وهو بطريرك اورشليم واسمه وليم William وجاءت بمعنى القائد العسكري وقد ورد بقوله:" وقد عسكر الإفرنج على بانياس في جمع كثير ومعه البطرك"[٥].

وورد في كتاب الإعتباركثير من آسماء القادة والفرسان الإفرنج بعد أن حور أسامة في أسمائهم وأخضعها للسان العربي، وعلى سبيل المثال:

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٧٥

(٢) المرجع نفسه، ص١٨١

(٣) المرجع نفسه، ص١٥٤

(٤) المرجع نفسه، ٦٥

(٥) المرجع نفسه، ص١١١

١. بغدوين ويقابلها بالاعجمية بلدوين، وورد ذكرهم بقوله: " كنت اتردد الى ملك الافرنج في الصلح بينه وبين جمال الدين محمد بن تاج، رحمة الله، ليد كانت للوالد، رحمه الله، بغدوين"[١].

٢. بدراهو، لعلها pedrovant وورد ذلك بقوله: "وكان بأفامية فارس من كبار فرسانهم يقال له بدرهوا"[٢].

٣. كليام دبور: Willia of Bures وورد ذلك في قوله: "ومن عجيب طبّهم ما حدّثنا به كليام دبور"[٣].

٤. إسباسلارأو إسفهسلار: فارسية(سيه سالاري- بمعنى قائد الجيش)، وورد ذلك في قوله: "وفيهم فرسان عسكر حماة:سرهنك وغازي التّلي ومحمود بن بلداجي وحضرالطُّوط واسباسلار"[٤].

٥. خواجا: أو برزك "تعريب، برزك الفارسية ومعناها العظيم. وورد ذلك في قوله: "...عن من حدثه أن شيخاً استأذن على خواجا بزرك.." [٥].

٦. دانق: وهي فارسية – سدس لدرهم، وورد ذلك في قوله: "جاءتني إبنة ثالثة فطلبت مني أهلي دانقاً"[٦].

٧. تركشه: فارسية معناها الكنانه والجعبة، وورد ذلك في بقوله:" ونحن قريب من البلد من بكرة وتحته برذون،غرأى ظل تركشه"[٧].

٨. الجنويَّة: وهم تجار جنوة وقد ورد ذلك في قوله: "فرأينا رجلا من الجنويَّة .." [٨]

٩. الداوية: Templars وورد ذلك بقوله: "فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى وفيه الداويَّة"[١].

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٠٥

(٢) المرجع نفسه، ص٨٧

(٣) المرجع نفسه، ص١٧٦

(٤) المرجع نفسه، ص٨١

(٥) المرجع نفسه، ص٢٢٧

(٦) المرجع نفسه، ص٢٢٩

(٧) المرجع نفسه، ص٢٧٥

(٨) المرجع نفسه، ص٢٥٢

ولم يكن الأمر مقصوراً عند أسامة على إيراد الألفاظ الأعجمية أو العامية في كتابه وإنما تعداه إلى حكاية الجمل والعبارات كما سمعها من أصحابها دون تعديل عليها ولاريب في أنَّ لذلك قيمةً هامة لدارسي اللهجات وتطورها، وغالباً ما تأتي مثل هذه العبارات في المشاهد الحوارية التي ينقلها أسامة كما في النص التالي:" قلت تفاوضنا يوما في ذكر القتال ومؤدبي الشيخ العالم أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بابن المنيرة رحمه الله يسمع. فقلت له يا أستاذ لو ركبت حصاناً ولبست كزاغندا وخوذة وتقلدت سيفاً وحملت رمحاً وترساً ووقفت عند مشهد العاصي موضع ضيق كان الإفرنج لعنهم الله يجتازون به مل كان يجوزك أحد منهم. قال بلى والله كلهُّم قلت كانوا يهابونك ولا يعرفونك. قال: سبحان الله! فأنا ما أعرف نفسي! ثم قال لي يا فلان ما يقاتل عاقل. قلت يا أستاذ تحكم على فلان وفلان وعددَّت له رجالاً من أصحابنا من شجعان الفرسان انهم مجانين! قال ماذا قصدت إنما العقل لا يحضر وقت القتال. ولو حضرما كان لأنسان يلقي بوجهه السيوف وبصدره الرماح والسهام، ما هذا شيء يقضي به العقل"[٢].

وكثيراً ما كان أسامة بن منقذ يورد العبارات كما نطقها قائلوها وقد احصى محقق الكتاب عدداً كبيراً من هذه العبارات والتراكيب أقتبسها كما هي:

١. "أيش أنتم[٣] ويا شيخ أيش أنت؟[٤] والعبارة ليست عامية، وإن خرجت من الاستعمال الفصيح،فقد استعملها بهذا المعنى[٥].
٢. أنا ما أزول من مكاني ما لقيناهم[٦] كنا لا نجد فيها خطأ تركيبياً، ومثلها قوله: ما عندها أحد[٧].
٣. وقوله: "ونحن على يقين أنّ أفامية ما فيها خيّالة"[١].

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٧٢

(٢) المرجع نفسه، ص١٠٩

(٣) المرجع نفسه، ص٣٥

(٤) المرجع نفسه، ص٦٦

(٥) ابن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت، الهيئة المصرية العامة، القاهرة ١٩٨١، ج١، ص٢٤٢

(٦) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٣٦

(٧) المرجع نفسه، ص٥٥

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٦٢

٤. وإذا أردت أشرب ماء[١] و"ماذا أعمل وأنت تريد ترجع"وقوله: "يريد يبصر الفارس"[٢].
٥. وقول أسامة "وهو جاي يمشي"[٣] وهو استعمال عامي.
٦. وكذلك قوله: "إنت ليش ما تدخل ؟تداخل إليّ الناس وأنت واقف"[٤]، وقوله: "يا مولانا نحن قد بطّلنا معايشتنا وزراعتنا في خدمتك"[٥].
٧. المستوى الثاني في كتاب الإعتبار: المستوى الفصيح الذي يستخدم فيه أسامة لغة عربية فصيحة وتراكيب صحيحة، ويمكن أن نميز في هذا المستوى بين نوعين من الأَساليب هما:

أ. الأسلوب المباشر:

وهو يقترب من لغة المؤرخين بما فيها من حياديةٍ وموضوعية ودلالات مباشرة، ويكثر هذا النوع في الكتاب على نحو واضح ولا سيما في سرده للوقائع التاريخية التي لا مجال للتبديل فيها. كما في الصفحات التي تحدث فيها عن أحوال مصر في نهاية العهد الفاطمي[٦] كذلك نجد هذا الأسلوب مباشر في سرد يوميات أسامة وبعض مشاهداته في حروبه وأسفاره وصيده، والأمثلة على ذلك كثيرة في الكتاب[٧].

ب. الأسلوب المتأدب الذي يحرص أسامة فيه على أداء المعنى بعبارة فيها قدر من الجمال للتأثير في نفس القارىء.

ونجد هذا الأسلوب في سياقين واضحين في كتاب الإعتبار:

١. أما السياق الأول فهو في تعليقات أسامة على الأمور التي كان يشاهدها وتثير دهشته واستغرابه فتنطلق نفسه معبرةً بلغةٍ أدبيةٍ جميلةٍ، ولكنها موجزة لا إطناب فيها.

---

(١) المرجع نفسه، ص٥٤

(٢) عبدالتواب، رمضان، المدخل إلى علم اللغة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٥، ص٢٩٩

(٣) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١١٠

(٤) المرجع نفسه، ص١٧٩

(٥) المرجع نفسه، ص٢٠٨

(٦) المرجع نفسه، ص٢٢

(٧) المرجع نفسه، ص٢٧٧

من ذلك وصفه مخاطر وادي موسى بلغةٍ شفافة مؤثرة، ينقل بها وقع الحدث في نفسه، وما كان يثور فيها من هواجس بسبب المخاطر التي يتعرضون لها: "فسرنا في أشّد من الموت في بلاد الفرنج بغير زاد للرجال ولاعلف للخيل إلى أن وصلنا جبال بني فهيد، لعنهم الله، في وادي موسى، وطلعنا في طرقات ضّيقه وعره إلى أرض فسيحة والرجال وشياطين رجيمة، من ظفروا به منًّا منفرد قتلوه. وتلك الناحية لا تخلو من بعض بني ربيعة الأمراء الطائيين، فسألت من ها هنا من أمراء بني ربيعة ؟ قالوا: منصور بن غدفل وهو صديقي فدفعت لواحد دينارين وقلت: إمض إلى المنصور قل له صديقك ابن منقذ يسلم عليك ويقول لك صل إليه بكره، وبتنا في مبيت سوء من خوفه.

فلمَّا أضاء الصبح أخذوا عدتّهم ووقفوا على عين وقالوا ما ندعكم تشربون ماءنا ونهلك ونحن بالعطش. وتلك العين تكفي ربيعة ومضر، وكم في أرضهم مثلها، وإنما قصدهم أن ينشئوا الشرّ بيننا وبينهم ويأخذونا، ونحن فيما نحن فيه ومنصور بن غدفل وصل، فصاح عليهم وسبّهم فتفرّقوا. وقال اركب فركبنا ونزلنا في طريق أضيق من الطريق التي طلعت فيها وأوعر. فنزلنا إلى لوطا سالمين، وما كدنا نسلم. فجمعت للأمير منصور ألف دينار مصريّة ودفعتُها إليه وعاد"[1].

ويقول:" وسرنا حتى وصلنا بلد دمشق بمن سلم من الإفرنج وبني فهيد يوم الجمعة خامس ربيع الآخر من السنة. وكانت السلامة من تلك الطريق من دلائل قدرة الله عزّ وجلّ وحسن دفاعه"[2].

ولا تخلو هذه التعليقات أحياناً من الحدة حين ينقل لنا خلاصة تجاربه مع الإفرنج كما في قوله يتحدث عن منزلة الفارس عندهم:" والإفرنج خذلهم الله ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلا للفرسان، ولا عندهم ناس إلا للفرسان، فهم أصحاب الرأي وهم أصحاب القضاء والحكمة، وقد حاكمُتهم مرّة على قطعان غنم أخذها صاحب بانياس من الشَّعراء وبيننا وبينهم صلح،

([1]) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٣٤

([2])المرجع نفسه، ص٣٥

وأنا إذ ذاك بدمشق. فقلت للملك فلك بن فلك هذا تعدّى علينا وأخذ دوابنا، وهو وقت ولاد الغنم، فولدت وماتت أولادها وردها علينا بعد أن أتلفها. فقال الملك لستّة سبعة من الفرسان: قوموا أعملوا له حكماً، فخرجوا من مجلسه وأعتزلوا وتشاوروا حتى أتفَّق رأيهم كلُّهم على شيء واحد وعادوا إلى مجلس الملك فقالوا: قد حكمنا أن صاحب بانياس عليه غرامة ما أتلف من غنمهم، فأمره الملك بالغرامة فتوسَّل إلي وثقل علي وسألني حتى أخذت منه أربع مائة دينار. وهذا الحكم بعد أن تعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا أحد من مقدمّي الإفرنج يغيره ولا ينقصه، فالفارس أمر عظيم عندهم. ولقد قال لي الملك يا فلان وحق ديني لقد فرحت البارحة فرحاً عظيماً قلت: الله يفرّح الملك بماذا فرحت؟قال:قالوا لي إنك فارس عظيم. وما كنت اعتقد أنك فارس. قلت يا مولاي أنا فارس من جنسي وقومي. وإذا كان الفارس دقيقاً عظيماً كان أعجب لهم"[1].

وتحمل هذه اللغة الأدبية أحياناً أحكاماً تقريرة مباشرة كما في قوله يصف طبائع الافرنج وأخلاقهم: "سبحان الخالق البارئ إذا خبر الأنسان أمور الإفرنج سبح الله تعالى وقدسه ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال ولا غير، كما في البهائم فضيلة القوّة والحمل"[2].

وقوله يصف إنعدام غيرتهم على نسائهم" فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم ما فيهم الغيرة والنخوة وفيهم الشجاعته العظيمة، وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والأنفة من سوء الأحدوثة"[3].

٢. وقد تأتي هذه العبارات الأدبية موشحة بروح الحكمة التي استرجعها أسامة من تجاربه في عمره المديد كما في قوله يصف عجائب القلوب: "ومن عجائب القلوب أن الإنسان يخوض الغمرات ويركب الأخطار ولا يرتاع قلبه من ذلك، ويخاف منه الصبيان ولا النسوان"[1].

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٨٣

(٢) المرجع نفسه، ص١٦٩

(٣) المرجع نفسه، ص١٧٥

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٨٢

ويميل أسامة إلى الإسلوب التأثيري حيث ينقل بعض الحوارات بينه وبين والده لنستشف عن بره لوالده من ناحية، وإعجابه به من ناحية أخرى كما في حوارهما عن نسخ القرآن أثناء إحتضاره[١].

٣. وترتقي لغة أسامة إلى مستوى من التعبير رفيع حين يصف كبر سنه وإحساسه بالعجز والغربة وعدم إهتمام الناس به بحيث يحمل أسلوبه طاقاتٍ تأثيرية كبيرة استودعها في الفاظه وفي تراكيبيه وفي صوره ليتمزج النثر والشعر معاً في سياق واحد،كما في قوله ينقل تأملاته بطول العمر:" ولم أدر أن داء الكبر عامّ يعدي كلّ من أغفله الحمام. فلمَّا توقَّلت ذروة التسعين وأبلاني مرُّ الأيَّام والسنين، صرت كجواد علاف لا لجواد المتلاف. ولصقت من الضعف بالأرض، ودخل من الكبر بعضي ببعض، حتى أنكرت نفسي وتحسَّرت على أمسي، وقلت في وصف حالي

لَّما بلغت من الحياة إلى مدى — قد كنت أهواه تمنَّيت الرّدّا
لم يُبِق طولُ العمر منّي مُنَّة — ألقى بها صرف الزمان إذا اعتدا
ضعفت قواي وخانني الثقّتان — من بصري وسمعي حين شارفت المدى
فإذا نهُضت حسبتُ أنّي حاملٌ — جبلا وأمشي إن مشيتُ مُقَّيدا
وأدبَّ في كفّي العصا وعهدتها — في الحرب تحمل أسمراً ومُهّندا
وأبيت في لين المهاد مسهدا — بلغ الكمال وتم عاد كما بدا

وأنا القائل بمصر أذُّم من العيش الراحة والدعة وما كان أعجل تقُضيّه وأسرعه:

أنظر إلى صرف دهري كيف عودني — بعد المشيب سوى عاداتي الأول
وفي تغاير صرف الدهر معتبر — وأي حال على الأيَّام لم تَحُل
قد كنت مسعر حرب كلما خمدت — أذكيتُها باقتداح البيض في القُلل
همي منُازَّلة الأقران أحسبهم — فرائسي فهم منّي على وَجلِ
أمضي على الهول من ليل وأهجم من — سيل وأقدمّ في الهيجاء من أجلِ
فصرت كالغداة المكسال مضجعها — على الحشايا وراء السّجفِ والكِللِ
قد كدتُّ أعفن من طول الثّواء كما — يصدّئ الهند طَولُ اللَّبث فَي الخلل
أروح بعد دروع الحرب في حلل — من الدبيقي فبؤسا لي وللحلل

---

(١) المرجع نفسه، ص٦٨

وما الرّفاهة من رامي ولا أربي ولا التنُّعيمُ من شأني ولا شُغلي
ولست أرضى بلوغ المجد في رفه ولا العلى دون حطم البيض والأسل(١)

ويشعر قارئ تأملات أسامة في عمر الإنسان وتقلبات الزمان به أنه كان يبكي لغةً فجاءت ألفاظه وتعابيره وصوره تنّش بالدمع وتطفح حزناً وأسفاً بلغة راقية وتعابير موحية وصور معبرة. وفي هذا يقول: " أعجزني وهن السنين عن خدمة السلاطين، فهجرت مغشى أبوابهم وقطعت أسبابي من أسبابهم واستقلت من خدمتهم ورددت عليهم ما حوّلوني من نعمهم، لعلمي أن ضعف الهرم لا يقوى على تكاليف الخدم، وأن سوق الشيخ الكبير لا ينفق على الأمير. ولزمت داري وجعلت الخمول شعاري ورضيت نفسي بالإنفراد في الغربة ومفارقة الأوطان والتربة، إلى أن تسكن نفارتها عن مرارتها وصبرت صبر الأسير على قدّه، والظمآن ذي الغلَّة عن ورده.مكاتبة مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، جامع كلام الإيمان قامع عبدة الصلبان، رافع علم العدل والإحسان محي دولة أمير المؤمنين أبو المظَّفر يوسف بن أيُّوب، جمَّل الله الأسلم والمسلمين بطول بقائه، وأيَّدهم بماضي سيوفه وآرائه، واضفى عليهم وارف ظلّه كما أضفى لهم من الأكدار موارد فضله، وأنفذ في البسيطة عالي أوامره ونواهيه،وحكَّم صوارمه في أعناق أعاديه مبرحمة نقبت عّني في البلاد ودوني الحزن بمضيعة من الأرض لامال لديّ ولا أهل. فأستنقذني من أنياب النوائب براية الجميل وحملني إلى بابه العالي بإنعامه الغامر الجزيل، وجبر ما هاضه الزمان منّي، ونفق على كرمه ما كسد عليّ من سواه من علوّ سنيّ، فغمرني بغرائب الرغائب، وأنهيني من إنعامه أهنى المواهب حتى رعى لي بفائض الكرم، ما اسلفت سواه من الخدم، فهو يعتدُّ لي بذلك ويرعاه رعاية من كأنه شاهد وراه، فعطاياه تطرقني وأنا راقد وتسري إليّ وأنا محتسب قاعد، فأنا من إنعامه كلّ يوم في مزيد، وإكرام كتكرمة الأهل وأنا أقلّ العبيد. أمَّنني جميلُ رأيه حادث الحادثات، وأخلف لي إنعامه ما سلبه الزمان بالنكبات المجحفات، وأفاض عليّ من نوافل فضله بعد تأدية فرضه وسنته، ما يعجز الأعناق عن حمل ايسر منته. ولم يبقى لي جوده أملا أرجوا نيله، اقضي زماني

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٢٠٧

بالدعاء به نهاره وليله، والرحمة التي تدارك بها العباد، أحيى ببركتها البلاد، والسلطان الذي أحيى سُنّة الخلفاء الراشدين، وأقام عمود الدولة والدين، والبحر الذي لا ينضب لكثرة الواردين ماؤه، والجواد الذي لا ينقطع مع تتابع الوافدين عطاؤه. فلا زالت الأمة من سيوفه في حمَى منيع، ومن إنعامه في ربيع مريع. ومن عدله في أنوار تكشف عنهم ظلم المظالم، وتكفّ بسطة يد المعتدي الغانم، ومن دولته القاهرة في ظلٍ وأرف، وفي سعود متتابع آنف في أثر سالف، ما تعاقب الليل والنهار، ودار الفلك الدوار:

دعوت وقد أمَّن الحافظان وذو العرش ممَّن دعاه قريب

وقد قال سبحانه للعباد سلوني فإني سميع مجيب

والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا مّحمد وعلى آله أجمعين، وحسبنا الله ونعم الوكيل."(1)

وكان أسامة بن منقذ يميل إلى الاستشهاد،ليؤكد بعض الرؤى والمضامين التي كان يراها، تعميقاً لهذه الدلالات في نفس القارىء وليس لدعم قضايا لغوية أو ماشابه ذلك، لأن الكتاب لم يوضع لهذه الغاية.

ويمكن ان نلحظ أن أسامة قد إستشهد بالقرآن الكريم والحديث الشريف والشعر انطلاقاً من النزعة الدينية المسيطرة عليه،أو من نزعة ثقافية كونه أدبياً وشاعراً .

١. استشهد أسامة بن منقذ بثلاث آيات كريمات في ثلاثة مواضع من كتاب الإعتبار:

أ.عندما دارت معركة بين بني منقذ والإفرنج، وكان ليث الدولة أبو القنا بن كامل بن مقلد ابن عم أسامة في الجيش،وهورمدٌ في عينيه دائماً، وقد هجم على الإفرنج فجرحوه، فكان هذا الجرح سبباً في شفائه من الرمد(2) وقد قال أسامة في هذا الموضع: فسبحان القائل: "وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم"(3).

كما ابتدأ أسامة فصلاً من فصول كتابه بقوله تعالى:"وما بكم من نعمة فمن الله"(1) بداية للفصل الذي خصصه لأخبار حضر بعضها، وحدثه من يثق به ببعضها الآخر

---

(1) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٢١٥

(2) المرجع نفسه، ص٨٢، ٨٣

(3) سورة البقرة، الآية٢١٥

(1) سورة النحل، الآية٥٣

وجعلها ملحقاً للكتاب،لأنها ليست مما قصد إلى ذكره فيما تقدم من الكتاب،وبدأها بأخبار الصالحين وكرامتهم[١].

والموضع الثالث هو قوله تعالى: "ومن نُعمّره ننكسه في الخلق"[٢] قالها في قصة الجارية التي عاشت حتى قاربت المائة،وقد ربّت والده وربته، ورآها مرة تغسل منديل الصلاة بقطعة جبن، وهي تظن انها قطعة صابون[٣]. وعلى هذا يمكننا أن نقول أن أسامة بن منقذ قد إستشهد بالقرآن الكريم ولكن بشكل موجز جداً، إذ جاءت الشواهد عرضاً، فكأنها توشية لبعض المواضيع، وربما جاءت عفواً بسبب ما يتمع به أسامة من أخلاق دينية.

٢. الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف: وهو أقل أثراً من الموضع نفسه، حيث جاء في موضعين فقط،ففي حديثه عن الأجل الطويل، وأن من يصل إلى سن أسامة يرى البقاء والصحة وداءً[٤].

واستشهد بقول الرسول عليه السلام (كفى بالصحة داء). وجاء قوله عليه الصلاة والسلام سائلا الأنصار :هل حضرمنكم يوم الحديقة؟ فقال رجل منهم انا حضرته يارسول الله وحضره قيس بن الخطيم وهو قريب عهد بالعرس، وعليه ملاءة حمراء فوالذي بعثك بالحق، لقد عمل في قتاله كما قال عن نفسه[٥].

٣. الاستشهاد بالشعر: يقع إستشهاد أسامة بالشعر في كتابه في قسمين:

أ. الاستشهاد بشعره: وهو كثير، ومن ذلك قوله في سياق تأمّلاته في طول العمر:

لما بلغت من الحياة إلى المدى　　قد كنت أهواه تمنيت الردا
لم يبق طول العمر مني منة　　ألقى بها صرف الزمان إذا اعتدا[١]

٢. الاستشهاد بشعر: وقد جاء في عدة مواضع ولشعراء مختلفين .

---

(١)ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٨٤

(٢)سورة يس، الآية٦٨

(٣)ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٩٩

(٤) المرجع نفسه، ص٢١١

(٥) المرجع نفسه، ص٦٣

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٢٠٧

أ. الاستشهاد بشعر عنترة بن شداد في وصف القتال، وجاء ذلك في سياق إستعجابه من سلامة فارسٍ أصيب بطعنةٍ:

إني امرو من خيرعبسٍ منصباً   شطري وأحمي سائري بالمنصل
وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظتْ   ألفيت خيراً من مُعٍّم مُخْوَلِ
والخيلُ تعلمُ و الفوارسُ أنّني   فرّقتُ جمعَهُم بضربـةِ فيصلِ[1]

ب. كما ساق بيت قيس بن الخطيم[2]الذي يمجدّ الشجاعة ويفتخر بنفسه في القتال:

أجالدهم يوم الحفيظة حاسراً   كأن يدي بالسيف مخراق لاعب[3]

وفي مثل هذا قال مستشهداً بقول الفند الزماني:

أيا طعنة ما شيخٍ   كبير يفنٍ بالي
تفتَّيت بها إذ كـ   ره الشِّكة أمثالي[4]

كما استشهد على صحة الأجسام بالمرض بقول المتنبي:

لعلّ عتبك محمودٌ عواقبه   فربما صحت الأجسام بالعلل[5]

واستشهد بجزء من بيت زهير بن أبي سلمى، ساخراً من طب الصليبين، وهو قوله:

دع ذا وعدَّ القول في   خير البداة وسيد الحضر [1]

وهو تطوير لدلالة البيت.

([1]) المرجع نفسه، ص٦١-٦٢

([2]) شاعر جاهلي من الأوس انظر: القرشي، أبو زيد، جمهرة أشعار العرب، تحقيق: محمد علي الهاشمي، دار صادر، بيروت، (د. ت)، ج٢، ص٦٥١

([3]) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٢٢٩، برواية :لقيتكم يوم الحنادق حاسراً

([4]) سهل بن شيبان شاعر جاهلي، القرشي، جمهرة أشعار العرب للقرشي، ج٢، ص٧٣

([5]) أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد أبو الطيب الكوفي المولد، ولد سنة ٣٠٣ هـ. المتنبي، أحمد بن حسين الكوفي، الديوان، بشرح عبد الرحمن البرقوقي، بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٣، ص٢١٠

([1]) انظر: ابن أبي سلمى، زهير، الديوان، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٦٨، ص١٦، ٨٦

كما استشهد بقول لأبي العلاء المعري على قضية صيد طير من الطيور الضخمة، صاده باز، وهو أمر مستهجن على باز، فهو لم ير طائراً صاده، فأورد شطراًمن قول أبي العلاء المعري:

أرى العنقاء تكبر أن تصادا فعاند من تطيق له عنادا[١]

٢.٥ السرد في كتاب الإعتبار:

المفهوم اللغوي للسرد "هو جودة سياق الحديث"[٢]. وبناء على هذا المفهوم نجد أن جميع الأجناس الأدبية أولت اهتماماً كبيراً باللغة المستخدمة في عرض الموضوع المراد تقديمه إلى القارئ، فأي خلل أو ضعف في لغة سرد الموضوع وتقديمه يمكن أن يجعل القارئ يبتعد عن الكتاب وربما كتب المؤلف بأكملها، حيث أن "الإطالة تجلب الملالة"[٣].

ويختلف السرد في السيرة الذاتية عن غيره من فنون النثر العربي؛ذلك أنَّ صاحب السيرة الذاتية يملك القدر الكافي من الحرية في الاستعانه بالتقنيات السردية لفنون النثر الأخرى وخاصة الرواية،وذلك عائد "إلى أن الكاتب عندما يعمد إلى كتابة سيرته الذاتية فإن الذكريات تتسارع إلى مخيلته ممّا يجعله يلجأ إلى الاختيار والانتقاء ومتابعة خط ذي دلالة معينة في حياته"[٤] فيضطر إلى مراعاة الترتيب الزمني للأحداث وترتيب مادة السيرة، لأنه إذا أخل بالترتيب الزمني، وأراد إعادة ترتيبها، كان لزاماً عليه أن يلجأ إلى فنية تسعى من أجل المزج بين الحدث عند حدوثه والحدث لحظة التذكر، وهذه الفنية يجب أن تلتزم بإثبات الحقيقة في نقل الحدث عند حدوثه مع "مراعاة كاتب السيرة في سرد سيرته، تسلسل الأحداث وانتظامها، والمحافظة على روابط تصل الأحداث ببعضها، وهذه الروابط تتطلب قدرة عالية من الصياغة الفنية،

---

(١) أبو العلاء المعري هو أحمد بن عبد الله بن سليمان القضاعي التنوخي المعري ٣٦٣هـ-٤٤٩هـ

(٢) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص٢٦١

(٣) ابن منقذ، الإعتبار، ص١٩٩

(٤) عبدالمحسن، تطور الرواية العربية في مصر، ص٢٩٩

والمقدرة على إيجاد روابط خارجية وأخرى داخلية"[١] ممّا يدفع كاتب السيرة الذاتية للاستعانه بتقنيات من فن الرواية كالتفسير والتحليل والتصوير.

وللكشف عن البناء السردي في السيرة لابد من أن منقف على الوحدات الأساسية التي ترتكز عليها:

١.٢.٥ السارد

يحتل الراوي "السارد" مكانةً خاصةً ومميزة في السرد إذ لا وجود لقصة بدون سارد، وتأتي هذه الأهمية بوصفه القائم بعملية سرد الأحداث، وتقديم الشخصيات، ورسم الاطار الزماني والمكاني الذي تجري فيه هذه الأحداث، إلى جانب ذلك فانّ "نقل الوقائع وتقديمها في قالب لغوي . شفاهي أو كتابي . يستوجب حضور هيئة تلفظ، هي شخصية السارد، التي تقوم بالتعبير عن هذه الافعال والأحداث ، العاجزة عن التعبير عن نفسها بنفسها"[٢] وفي كتاب الإعتبار كان أسامة بن منقذ سارداً،أدى وظيفته بشكل ناجح، وكان المحرك للعملية السردية، وقد ظهر أسامة سارداً بعدةأشكال:

١-السارد المتماهي:

وهو الذي يسرد ما حصل له شخصياً من حوادث،ومن ثّم فهو تأمل للأحداث كما هي، وغالباً ما تكون بصيغة الماضي، وكان أسامة نفسه هو السارد (المتماهي) في معظم كتابه الإعتبار، حيث يسرد لنا مجريات حياته بصيغة المتكلّم كما في قوله:

"وكنت قد ركبت أنا وأصحابي إلى باب القصر"[٣]

"فمن ذلك ما شاهدته"[٤].

"مثل ذلك ماجرى لي"[٥].

"وشاهدت من الطعنات العظيمة طعنه طعنها فارس من الافرنج"[١].

---

(١) لفتة، ضياء عبدالغني، البنية السردية في شعر الصعاليك، دار الحامد، عمان، ٢٠٠٩، ص١٥٨.

(٢) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٦٠

(٣) المرجع نفسه، ص٣٦

(٤) المرجع نفسه، ص٦٢

(٥) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٣٨

وقد أدّى هذا الراوي (أسامة) وظائف متعددة من آهمها:

أ. وظيفة وصفيه، حيث قام الراوي بتقديم مشاهد وصفيّة للمنازلات وأعمال الفروسيّة مستعيناً بأسلوب السرد الموضوعي كما في قوله: "وكان في جند الجسر رجل كردي يقال له أبو الجيش له بنت إسمها رفول قد سباها الإفرنج"[٢].

ب. وظيفة توثيقية، حيث قام أسامة بتوثيق مرويّاته رابطاً إياها بمصادر تاريخية، لأنه يروي تاريخاً موثقاً.

ج. وظيفة تأجيلية، حيث أصّل أسامة لمروياته في كتابه، وجعل منها سِفراً للصراع بين المسلمين والإفرنج، وربطها بمأثر العرقيّة الإسلامية في الإنتصار على الخصوم.

٢. السارد المفارق لمسروده

وهو السارد الذي ينقل ما تعرض له غيره من أحداث و يتدخل دائماً فيما يرويه من ذلك: "ومن عجائب الطعن ان رجلا من الأكراد يقال له حمدات كان قديم الصحبة قد سافر مع والدي رحمه الله إلى اصبهان إلى دركاه السلطان ملك شاه فكبر وضعف بصره ونشأ له اولاد. فقال له عمي عز الدين رحمه الله: يا حمدات كبرت وضعفت، ولك علينا حق وخدمه، فلو لزمت مسجدك وكان له مسجد على باب داره واثبتنا أولادك في الديوان ويكون لك أنت كل شهر ديناران وحمل دقيق وأنت في مسجدك"[٣].

"ومن إقدام الرجل الواحد على الجمع الكثيرفمن ذلك أن اسباسلار مودود[٤] رحمه الله نزل بظاهر شيزر يوم الخميس تاسع ربيع الأول ٥٤٩هـ، وقد قصده تتكريد صاحب إنطاكية في جمع كثير، فخرج إليه عمي ووالدي رحمهما الله وقال الصواب أن ترحل وتنزل في البلد، ويضرب العسكر خيامهم على السطوحات في المدينة، ونلقى الأفرنج بعد أن تحرز خيامنا وأثقالنا."[١]

---

(١) المرجع نفسه، ص١٩٢

(٢) المرجع نفسه، ص١٩٢

(٣) المرجع نفسه، ص٤٩

(٤) الأمير مودود صاحب الموصل

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٦٨٢

"وكان ممن أسر في جملة من أسر في ذلك اليوم امرأة كانت من أصل جيد من العرب وصفت لعمي عز الدين أبي العساكر سلطان رحمه الله قبل ذلك وهي في بيت أبيها. فأرسل عمي عجوزاً من أصحابه تبصرها فعادت تصفها وجمالها وعقلها أما لرغبة بذولها لها أما أروها غيرها، فخطبها عمي وتزوجها"[1].

٣. السارد الضمني:

وهنا يقوم السادر "أسامة بن منقذ" بفتح موضوع السرد، ثم يقدم سارداً يقوم بمهمة السرد،فيما يتحول أسامة بن منقذ، شاهداً مستمعاً/مسروداً له ومن ذلك: "وحكى لي صاحبي هذا عن أبن صاحب الطور وكان طلع معي من مصر في سنة ٥٣٨هـ، قال: حدثّني أبن والي الطوروهي ولاية لمصر بعيدة، كان الحافظ لدين الله رحمه الله، إذا أراد أبعاد بعض الأمراء ولاه الطور وهو قريب لبلاد الأفرنج. قال: وليها والدي وخرجت أنا معه إلى الولاية وكنت مغرىً بالصيد فخرجت أتصيَّد فوقع بي قوم من الإفرنج فأخذوني ومضوا بي إلى بيت جبريل فحبسوني فيه في جبّ وحدي وقطع عليّ صاحب بيت جبريل ألفي دينار، فبقيت في الجبّ سنة لا يسأل عني أحد...."[2].

"ومن ذلك ما حدثني به المؤيد الشاعر البغدادي بالموصل سنة ٥٥٦هقال اقطع الخليفة والدي ضيعة وهو يتردد إليها وبها جماعة الطريق ووالدي يصانعهم لخوفه منهم وانتفاعه بشيء مما يأخذونه. فنحن يوماً جلوس بها أقبل غلام تركي على حصانه ومعه بغل رحل عليه خرج وجارية راكبه فوق الخرج فنزل وأنزل الجارية فقال: يا فتيان، اسعدوني على حط الخرج، فجئنا حططناه معه وإذا به كله دنانير ذهب ومصاغ، فجلس هو والجارية، أكلا شيئا ثم قال: اسعدوني على رفع الخرج، فرفعناه معه فقال لناكيف طريق الأنبار؟ فقال له: والدي الطريق ها هنا وأشار إلى الطريق ولكن في الطريق ستون عياراً أخاف عليك منهم. فضرط له وقال أنا أخاف من العيارين..." [1].

---

(١) المرجع نفسه، ص٢١

(٢) المرجع نفسه، ص١٩٢

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٧١

وأورد في قوله أيضاً: "وحدثني الأمير فضل بن أبي الهيجاء صاحب أربل قال حدثني أبو الهيجاء قال بعثني السلطان ملك شاه لما وصل الشام إلى الأمير ابن مروان صاحب ديار بكر يقول: أريد ثلاثين ألف دينار، فاجتمعت به واعدت عليه الرسالة. فقال تستريح ونتحدث، واصبح أمر ان يدخلوني الحمام ونف آلة الحمام جميعها فضة ونفذ لي بدلة ثياب. وقالوا لفراشي كل آلة الحمام لكم. فلما خرجت لبست ثيابي ورددت جميع الحوائج، فتركني أيام ثم أمر لي بحمام وما أنكر رد الحوائج، وحملوا معي آلة الحمام افضل من الآلة الأولة وبدلة الثياب أفضل من البدلة الاولة وقال القراش لفراشي كما قال اولاً. فلما خرجت لبست ثيابي ورددت الحوائج والثياب، فتركني ثلاثة أربعة أيام ثم عاد ادخلني إلى الحمام وحملوا معي الآت فضه أفضل من الآلة وبدلة ثياب افضل من الاولة"[1].

٢.٢.٥ المسرود / المحكي

بما ان السيرة الذاتية هي حكي استعادي لوقائع حدثت أو للكاتب بالزمن الماضي ودونها لتكون حصيلة تجارب حياته نلحظ أن أسامة بن منقذ، دوّن تجاربه دون أن يخضعها للقيود الزمانية أو المكانية، فقد كان متحرراً، تاركاً لذاكرته الحرية المطلقة في التذكر، والانتقاء، والقفز فوق حواجز السنين، والأحداث، والشخصيات. لتحتل الحكايات التي تشكل البصمة الأقوى والأعمق في حياته في بداية مدوناته .

لذلك نلحظ أن الحروب والأسفار، وقتال الإفرنج إحتل الصدارة في الحكايات المسرودة في كتاب الإعتبار وكانت البداية مع حكاية "معركة قنسرين" بين المسلمين والإفرنج، ويمكن أن يرجع السبب في ذلك لقوة المسلمين آنذاك التي شكلت صورة رائعة بمخيلته "ولم يكن القتل في ذلك المصاف في المسلمين كثيراً.... بل قتل من الإفرنج خلق كثير وأمر أتابك رحمه الله، فجمعت رؤوسهم في حقل مقابل الحصن، فكانت

---

(١) المرجع نفسه، ص٧٨

قدر ثلاثة آلاف رأس ثم إن ملك الروم عاد خرج إلى البلاد في سنة اثنتين وثلاثين وخمس مائة"[1].

وقد سرد أسامة بن منقذ حكاياته تبعاً لمقدار إلحاحها وحضورها في ذاكرته كما يلي:

١.**(الباب الأول) حروب وأسفار**

حيث سرد حكاياته في قتال الإفرنج وأخبار تنقلاته وأسفاره وبعض ملاحظاته أما ما أورده عن أخبار القتال مع الافرنج فقد احتل الجزء الأكبر في ذكرياته وقد تناولها بكل حيادية وموضوعية ومن هذا:

"ثم إن ملك الروم عاد خرج إلى البلاد في سنة اثنتين وثلاثين وخمس مائة، واتفق هو والإفرنج خذلهم الله، واجمعوا على قصد شيزر ومنازلتها. فقال لي صلاح الدين: ماترى ما فعله هذا الولد المثكل؟ يعني ابنه شهاب الدين احمد قلت: وأي شيء فعل؟ قال: أنفذ إلي يقول أبصر من يتولى بلدك. قلت: وأي شيء فعل؟ قال: نفذت إلى أتابك أقول تسلم موضعك. قلت: بئس ما فعلت! أما يقول لك أتابك لما كانت لحماً أكلها، ولما صارت عظماً رماها علي؟ قال: فأيّ شيء أعمل؟ قلت: أنا جالس فيها فإن سلّم الله تعالى كان بسعادتك، ويكون وجهك أبيض عند صاحبك .وإن اخذ الموضع وقتلنا كان بآجالنا، وأنت معذور قال: ما قال لي هذا القول أحد غيرك وتوهَّمت أنه يفعل ذلك، فحفلتُ الغنم والدقيق الكثير والسمن وما يحتاجه المحاصر، فأنا في داري المغرب ورسوله جاءني قال: يقول لك صلاح الدين نحن بعد غدٍ سائرون إلى الموصل فاعمل شغلك للمسير. فورد على قلبي من هذا هّم عظيم وقلت: اترك أولادي واخوتي وأهلي في الحصار وأسير إلى الموصل؟ فأصبحت ركبت إليه وهو في الخيام استأذنته في الرواح إلى شيزر لأحضر لي نفقة ومالاً نحتاج إليه في الطريق. فأذن وقال: لاتبطىء، فركبت ومضيت إلى شيزر، فبدا منه ما أوحش قلبي، وعرك ابني فنازل، فنفَّذ إلى داري فرفع كلّ مافيها من الخيام والسلاح والرحل وقبض على أمر أحبَّتي وتتبع أصحابي فكانت نكبة كبيرة رائعة"[1].

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٢٠

(١) المرجع نفسه، ص٢٠

أ. أخباره وحكاياه

حيث سرد حكاياه وأخبار تنقلاته،والمكائد والمهام التي قام بها. ومن هذا" فكان وصولي إلى مصر يوم الخميس الثاني من جمادى الآخر سنة تسع وثلاثين وخمس مائة. فأقرّني الحافظ لدين الله ساعة وصولي، فخلع عليّ بين يديه، ودفع لي تخت ثياب ومائه دينار وخوّلني دخول الحمام، وأنزلني في دار من دور الأفضل بن أمير الجيوش في غاية الحسن وفيها بُسطها وفرشُها ومرتبةٍ كبيرةِ آلتها من النحاس، كل ذلك لا يُستعاد منه شيء، وأقمت بها مّدة إقامة في إكرام وإحترام وإنعام متواصل وإقطاع زاج. فوقع بين السودان، وهم في خلق عظيم، شرٌ وخلف بين الريحانيَّة، وهم عبيد الحافظ، وبين الجيوشَّية والإسكندرَّية والفرحيَّة، فكان الريحانيَّة في جانب، وهؤلاء كلهم في جانب متفقين على الريحانيَّة وانضاف إلى الجيوشيَّة قوم من صبيان الخاص. فاجتمع من الفريقين خلق عظيم، وغاب عنهم الحافظ، وتردّدت إليهم رسله، وحرص على إن يُصلح بينهم. فما أجابوا إلى ذلك، وهم معه في جانب البلد، فأصبحوا التقوا في القاهرة فاستظهرت الجيوشَّية أصحابها على الريحانيَّة فقتلت منهم في سويقة وأمير الجيوش ألف رجل حتى سدوا السويقة ونحن نبيت ونصبح بالسلاح خوفاً من ميلهم علينا، فقد كانوا فعلوا ذلك قبل طلوعي إلى مصر"[١].

ب. أخبار وملاحظات:

فقد سردها أسامة تحت ثلاثة عناوين :

١. **إختبارات حربية:** وأمتازت روايته بانها عفوية منتقأة من حياته بفترتي الطفولة والشباب، ايام القتال مع الإفرنج. كما نجد أسامة قد خصص بهذا الجزء بعض النساء وبطولاتهن سواء أكانت والدته أمّ جدته أم نساء المسلمين، فضلاً عن ذكر نساء الإفرنج، وقد ورد ذلك بقوله:

"وفي ذلك اليوم فرقت والدتي رحمها الله سيوفي وكزاغنداتي، وجاءت إلى أخت لي كبيرة في السن وقالت إلبسي خفك وإزارك. فلبست وأخذتها إلى روشن في داري يشرف على الوادي من الشرق أجلستها عليه وجلست إلى باب الروشن، ونصرنا الله سبحانه

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٦

عليهم. وجئت إلى داري أطلب شيئاً من سلاحي ما وجدت إلى جهازات السيوف وعيب الكزاغندات. قلت يا أمي أين سلاحي؟ قالت يا بُنيّ أعطيت السلاح لمن يقاتل عن، وما ظننتك سالماً قلت وأختي أي شيء تعمل هاهنا؟ قالت يا بُنيّ أجلستها على الروشن وجلست برّاً منها. إذا رأيت الباطنية وصلوا إلينا دفعتها رميتها إلى الوادي فأراها قد ماتت ولا أراها مع الفلاحين والحلاجين مأسورة. فشكرتها على ذلك فشكرتُها الأخت وجزتها خيراً، فهذه النخوة أشد من نخوات الرجال"[1].

ج. **طبائع الإفرنج وأخلاقهم:** وهنا سرد أسامة مجموعة من الأخبار عن طبائع الإفرنج وأخلاقهم،لا سيما في الطب والغيرة على النساء. وقد ورد ذلك بقوله:

"ومن عجيب طُبهّم ان صاحب المنيطرة كتب إلى عمّي يطلب منه إنقاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه، فأرسل إليه طبيباً نصرانيّاً يقال له ثابت، فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا لهما أسرع ما داويت المرضى! قال أحضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دمَّلة وامرأة قد لحقها نشاف، فعملت للفارس لُبخة ففتحت الدمّلة وصلحت، وحميت المرأة ورطبت مزاجها فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم: هذا ما يعرف شيئ يداويهم. وقال للفارس أيُّما أحبُّ لك أن تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين. قال أعيش برجل واحدة. قال: أحضروا لي فارساً قويّاً وفأساً قاطعاً. فحضر الفارس والفأس وأنا حاضر، فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس: أُضرب رجله بالفأس ضربةً واحدة وإقطعها. فضربه وأنا أراه ضربة واحداً ما انقطعت، فضربه ضربة ثانية فسال مخُّ الساق، ومات من ساعته"[2].

ومما أورده عن الغيرة نجده يقول: "وليس عندهم شيء من النخوة والغيرة، يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقاه رجل أخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث، فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى"[1].

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٥٩

(٢) المرجع نفسه، ص١٧٠

(١) المرجع نفسه، ص١٧٤

د. اختبارات وملاحظات

قدم هنا إضاءات على أحداث صغيرة، ضلت عالقة في ذهنه لعقود من الزمن، بينَ فيها طبائع بعض الشخصيات، التي لم يكن ليعرفها أحد لولا كشفه عنها. مثل حكاية خوف عم أسامة، عزالدين أبي العساكر سلطان من فأرة، على الرَّغم من شجاعته المعروفة[١]. ولعل أفضل ما في هذا الجزء "تأملات أسامة بشأن طول العمر "[٢].

٢. الباب الثاني: نكت ونوادر وقد سردها على النحو التالي:

أ. أخبار الصالحين:

سرد أسامة أخبار بعض الصالحين وكراماتهم وهم أحياء وأموات، مثل خبر عبدالله بن القبيس قبل دفنه، وعندما فعلوا ذلك جاء رجل وصلى عليه وانصرف، قبل أن يعرفه أحد[٣] كما سرد أسامة بن منقذحكاية تبين منها إيمانه بالكرامات، حيث سرد حكاية على لسان عبد علي، الذي اصابه الفالج، ويبست رجلاه. لم تكن تتبعه، وليس فيها حركة، وقد عجز الأطباء عن علاجه، إلا انه شفي بعد رؤيا رآها في منامه: "...فبقيت على ما أنا إلى ليلة رأيت فيها فيما يرى النائم كأنّ رجلاً وقف عليّ وقال: قم. قلت: من أنت؟ قال: أنا عليّ بن أبي طالب. فقمت وقفت.فأنبهتُ امرأتي، وقلت: ويحك! قد أبصرت كذا كذا! فقالت: ها أنت قائم. فمشيت على رجلي وزال ما كان بي ... فسبحان الشافي المعافي"[٤].

ب. الشفاء بطرق غريبة:

وهنا سرد بعض الحكايا الغريبة، وكشف عن بعض الجوانب التي شكلت قناعاته وآمن بها، فرجل يشفى من الفتق بعد أن آكل الغربان، وآخر يشفى من أكل خبز وخل، ومربيته لؤلؤة التي شفيت من القولنج بعدأن رأت أمواتها في حلم"[١].

---

(١) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٤٢

(٢) المرجع نفسه، ص٢٠٤

(٣) المرجع نفسه، ص٢٢١-٢٢٩

(٤) المرجع نفسه، ص٢٣٠

(١) المرجع نفسه، ص٢٣٠

٣. الباب الثالث: أخبار الصيد: وفيه يسردأخبار بإفاضه عن السيوف وضرباتها القاتلة ونماذج من الشجعان، كما يتحدث أحاديث فريدة عن الأسود والنمور والضباع وجوارح الطير وكلابه المعلمة وعن الصيد وأخباره، سواء كانت في شيزر أو غيرها من المناطق التي تنقل بها، وقد ورد ذلك بقوله: " وشاهدت الصيد في حصن كيفا مع الأمير فخر الدين قرا أرسلان بن داود رحمه الله([١]). وهناك الحجل والزرخ كثير والدراج، فأمَّا طير الماء فهو في الشط وهو واسع ما يتمكَّن الباز منها، وأكثر صيدهم الأراوي ومعزى الجبل يعملونا لها شباكاً ويمدونها في الأودية ويطردون الأراوي فتقع في تلك الشباك وهي كثيرة عندهم وقريبة المتصيد وكذلك الأرانب[٢].

وأورد أيضاً:" وشهدت الصيد مع الملك العادل نور الدين رحمه الله فحضرته ونحن بأرض حماة وقد جلوا له أرانباً فضربها بنشَّابة كشماء"[٣].

ومن هنا نستطيع أن نقول أن أسامة بن منقذ أعطى نفسه الحرية المطلقة، في التنقل بين أخبار حياته فقد تحرر من قيود السرد الملتزمة بالزمن الميقاتي، المتمثله بالأيام والأسابيع والشهور والسنين، فختار ألاحداث حسب تشبثها بالذاكرة وقوة أثرها في نفسه. ولقد شكل موضوع الكتاب، سيرة أسامة بن منقذالبنية السردية الكبرى للكتاب، فيما شكلت أبواب الكتاب الثلاثة البنيات السردية الصغرى، وجاءت الحكايات المسرودة وحدات سردية فرعية داخل كل باب، وحدة سردية صغرى، وبذلك حافظ الكتاب على بنيته السردية قوية متماسكة.

٣.٢.٥ المسرود له

هو الذي يتلقى مايرسله الراوي، سواء أكان متعيناً ضمن البنية السردية،أم كائناً مجهولاً " لذلك نجد كتاب السيرة يقيم علاقة وثيقة مع القارىء لسيرته الذاتية (المسرود له). ونجد أسامة بن منقذ يشكل علاقة قوية بينه وبين القارىء لسيرته مسروداً له،

---

(١) قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق، صاحب حصن كيفا في ديار بكر، الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٢٦٥.

(٢) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٨١-١٨٧

(٣) المرجع نفسه، ص٢٥٣

والاعتراف له والتعبير عن مواقفه تجاه الكثير من صروف الدهر التي مرت به عبر السنين. ونجد المسرود في كتاب الإعتبار إتخذ أشكالاً عدة منها:

أ. من البديهي أن يكون كاتب السيرة سارداً ومسروداً له في آن واحد وقد جسد أسامة ذلك في كتابه الإعتبار، فقد كان سارداً يقوم بعملية السرد بتمامها، ويسجل اعترافاته، ومسروداً يستمع ألى ما بداخله، في اعترافات صريحة مع الذات. وقد أخرجها من أعماق ذاكرته، ليكون مستمعاً لها بعد أن كان بطل أحداثها، أو شاهداً عليها. وبذلك يكون حقق الوظيفة الاعترافية "التي تتيح للكاتب أن يفضي بمكنونات حياته في سيرته"، كما يقول عبد العزيز شرف(١).

ب. يمكن أن نقول أن كل ما يعاصر كاتب السيرة يعد مسروادً له لذلك نجد أنّ كل من عاصر أسامة مسروداً له ؛أبنائه،تلاميذه،أصحابه، وخدمه،وكل من إعترف أو باح بما بداخله له،ونجد هذا جلياً وأكده بقوله" قرأت هذا الكتاب من أوله على آخره في عدة مجالس..." (٢).

ج. ويعد كل من يقرأ كتاب الإعتبار في وقتنا الحالي مسروداً له أيضاً، فنحن اليوم نقف أمام رجل سجل اعترافاته وذكرياته، بحلوها ومرّها، وبأدق تفاصيلها.

٤.٢.٥ الزمن السردي

يعتمد السرد الزمني في الإعتبار على الاسترجاع، فقد كتب أسامة كتابه الإعتبار بعد أن بلغ التسعين" فلما توقَّلت التسعين وأبلاني مر الأيام والسنين، صرت كجواد علاف لا الجواد المتلاف"(٣) لذلك يمكن أن نلحظ أن زمن السرد يختلف عن زمن الحدث (المشاهدة) في سيرة أسامة بن منقذ، فنجده ينطلق من الزمن الحاضر (زمن السرد) وقد تجاوز التسعين من عمره، إلى الزمن الماضي، ليقف به وقفة الناقل والباحث والسارد لذكرياته بكل جزئياتها وتفاصيلها ليعكس صورة ربما تكون ناقصة

---

(١) إبراهيم، عبد الله، (١٩٢٢)، السردية العربية، بحث في البنية السردية للموروث المكاني العربي، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٢٢، ص٢٠.

(٢) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٢٩٠

(٣) المرجع نفسه، ص٢٠٧

الأحداث ومشاهدات عاشها،وظلت عالقة في ذاكرته سنين طويلة. ومن خلال الإطلاع على كتاب الإعتبارنجزم أن اسامة بن منقذ،لم يخضع لتسلسل الزمني التاريخي، الملزم بتسلسل الايام والشهور والسنين، بل أخضع نفسه لقانون الذاكرة والاهتمام الشخصي، فخبر قتل أسامة خادمة وهو دون عشر سنين، جاء متأخراً، وقد سبقها حكايات كثيرة حدثت لأسامة بعدها، عندما كان شيخاً كبيراً لذلك يمكن أن نلحظ أنّ هناك فجوة زمانية كبيرة

بين زمن الحكاية وزمن السرد، إستطاع أسامة بن منقذ بأسلوب الاسترجاع أن يقلصها ليقدم لنا مادة غنية بذكرياته ونفيسة بمحتواها ومضمونها.

٥.٢.٥ تقنيات السرد:

إعتمد أسامة بن منقذ في كتابه الإعتبار على مجموعة من التقنيات السردية والتي جاءت على النحو التالي:

١. الخلاصة:

"هي شكل من أشكال السرد القصصي تكمن في تلخيص عدة ايام، أو عدة أسابيع، أو عدة سنوات في مقاطع أو صفحات قليلة من غير الخوض في التفاصيل"[١] ومن الأمثلة عليها في الإعتبار قوله: "فكانوا يقاتلون النهار كله"[٢]، "وقتل في الفتنة جماعة من المصريين والسودان"[٣].

فهنا نجده يسرد الاحداث بشكل سريع، مع التركيز على إبراز الحالة النفسية لمن عايشها آنذآك.

---

(١) أبو ناضر، موريس، الألسنية والنقد الأدبي، في النظرية والممارسة، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٩، ص٩٨

(٢) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٢٦

(٣) المرجع نفسه، ص١٠

٢. الوقف:

"وهو يتشكل من وقف الأحداث المتنامية إلى الأمام، أو كما نقول في الألسنية وقف الأعمال بغية التامل في مشهد أو شيء ما"[١] وتكون الغاية من الوقف؛ إطلاق الذاكرة للتأمل والهدوء والانسجام.

ومن الأمثله عليها في كتاب الإعتبار "وكنا نخرج إلى صيد طير الماء والدرّاج ونرجع بعد عتمة نسمع صوت الطيور في خلجان كبار بالقرب من البلد. فيقول الوالد هات اليحشور، فيأخذه وهو شبعان ويتقدّم إلى الطيور يدقُّ الطبل حتى تطير الطيور ثم يرميه عليها. فإن أصاد وقع بيننا نزل إليه البازيار ذبح في رجله ورفعه، وإن لم يصد وقع على أكناف النهر فما نراه وما ندري أين وقع، فنخليه وندخل إلى البلد"[٢].

٣. الحذف: هو شكل من أشكال السرد القصصي، يتكون من إشارات محدودة أوغير محدودة للفترات الزمنية التي تستغرقها الأحداث في تناميها بشكل باتجاه المستقبل، أو في تراجعها نحو الماضي، والإشارات الزمنية منها الظاهر مثل: "وقضت عشر سنوات..." ومنها الضمني، او الافتراضي حيث ينتقل بنا الراوي من فترة زمنية إلى فترة زمنية إلى أخرى من دون تحديد الوقت الذي استغرقته هذه الفترة"[٣].

أ. حذف ظاهر: ومن الأمثله عليه: "ثم إن الإفرنج غاروا علينا بعد أيام"[٤].

ب. حذف ضمني: ومن الأمثله عليه: "واجتمع إليه الأمراء وحملوا إليه الطعام والنفقه. وقد جمع الحافظ قوما من السودان في القصر شربوا وسكروا، وفتح لهم باب القصر فخرجوا يريدون رضوانا. فلما وقع الصياح ركب الأمراء كلهم من عند رضوان وتفرقوا هو من الجامع، وجد حصانه قد أخذه الركابي وراح، فرآه رجل من صبيان الخاص واقفاً على باب الجامع فقال يا مولاي ما تركب حصاني؟ قال بلى فجاء إليه يركض وسيفه بيده، فأومأ كأنه يميل للنزول وضربه بالسيف فوقع،

---

(١) أبو ناضر، الألسنة والنقد الأدبي، ص١٠١

(٢) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٢٦٣

(٣) أبو ناضر، الألسنة والنقد الأدبي، ١٠١

(٤) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٤٨

ووصله في السودان قتلوه، وتقاسم أهل مصر لحمه يأكلونه ليكونوا شجعاناً. فقد كان فيه معتبر وواعظ لولا نفاذ المشيئة[١].

ويلعب الحذف دوراً أساسياً في المعاناة النفسية للسارد تجاه حركة الزمن الثقيل.

٤. **المشهد:** هو"توالي الأحداث بكل تفاصيلها وأبعادها"[٢] وفي السيرة يلجأ السارد إلى وصف أدق التفاصيل والجزيئات التي تستحظر بذاكرته، ونجد أسامة بن منقذ يعتمد على المشهد بشكل أساس في الإنتقال إلى الزمن الماضي، والانتقال استرجاعاً حيناً واستباقاً حيناً آخر.محاولاً كشف تفاصيل الحدث وجزئياته، بما تحويه من شخوص وحركات وألوان وأصوات وهواجس نفسية. ونجد أسامة بن منقذ،قد رسم مشاهد دقيقة بكل جزئياتها وخاصة بما أورده في الباب الثالث من مغامرات الصيد،بالرغم من أن الفاصل الزمني بين زمن السرد وزمن الحدث قد جاوز الثمانين عاماً. وبذلك يكون المشهد قد حقق وظيفته بكونه دعامة من دعائم تقنيات السرد.

٦.٢.٥ أساليب السرد

يعتمد السارد في السيرة الذاتية على عدة أساليب، ليحقق أهدافه وغاياته من السرد. ونجد أسامة بن منقذ قد إعتمد على عدة أساليب سردية ليحقق هذه الغاية ومنها:

أ- الأسلوب السير ذاتي: وهو أقرب إلى أسلوب السرد الروائي، في التركيز على الحوار داخل السرد، والاعتماد على التشخيص الدقيق للجوانب النفسية والبدنية للشخصية، وبالاضافه للاعتماد على التصوير الدقيق لأدق الجزيئات في المشهد، زماناً ومكاناً. ومن ذلك أورده في أسامة بن منقذ في حديثه عن رجل استقى فشق بطنه[٣].

---

(١) المرجع نفسه، ص٣٢

(٢) أبو ناضر، الألسنية والنقد الأدبي، ص١٠٣

(٣) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٨٩

ب- الأسلوب التقريري الوصفي: وهنا ينقل أسامة الأحداث كما شاهدها، دون أن يزيد عليها شيئاً من ذاته، ومن ذلك قوله يصف سباقاً بين عجوزين من الإفرنج: عند خروج الفرسان يلعبون بالرماح[1].

ج- الأسلوب التفسيري التبريري:

لجأ أسامة بن منقذإلى تقديم تفسير منطقي تبريري للحدث الذي شاهده قبل سنوات، ثم قاد بسرده بعد ذلك. ومنه التفسير التبريري الذي قدمه لما أقدمت عليه أمه عندما كادت تدفع ابنتها من أعلى الوادي لتموت وفسرت ذلك برغبتها بموت إبنتها خير أن تراها مأسورة بيد الفلاحين والحلاجين[2].

٣.٥ الخاتمة

وبعد، فقد تمَّ في الصفحات نفسهة دراسة كتاب "الإعتبار" لأسامة بن منقذ من الناحيتين المضمونية والفنية، وقد بينت هذه الدراسة أنَّ هذه السيرة عبّرت عن تفاعل أسامة بن منقذ مع بيئته وما فيها من أحداث تموج بالصراع والقلق.

ويشّف كتاب الإعتبار، عن عناصر البناء والتكوين كاتبه أسامة من النواحي؛ الدينية والثقافية والاجتماعية، والسمات التي ميّزت هذا الرجل فارساً، من فرسان الإسلام زمن الحروب الصليبية، ومظاهر القوة والضعف في هذه الشخصية ولاسيما بعد أن تقدّمت به السنّ، وأمسى يعيش على هامش المجتمع.

وسيطرت النزعة المناقبيّة على كثير من صفحات الكتاب، فهو لا يفتأ يتحدّث عن مناقب ذويه، ولا سيّما والده، ومناقب الفرسان، ومناقب الصالحين، ومناقب النسّاء، ناقلاً بذلك صوراً حيّة لنماذج إنسانيّة كانت تُمثّل شرائح فاعلة في المجتمع الشامي آنذاك.

---

(١) المرجع نفسه، ص١٣٨

(٢) ابن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٥٩

وألقى أسامة أضواء كاشفه على كثير من مظاهر الحياة في بلاد الشام في عصره وصَّور أحوال بعض البلدان الشامية، وحظّها من العمران وازدهار الزراعة، وتكاثر الثروة الحيوانية، وقوة الروح الحربية في نفوس القوم.

ويشف الكتاب عن كثير من الأساليب التربويّة التي كان ينتهجها القوم آنذاك في تنشئة أبنائهم وتربيتهم، لتنمية الجوانب المتعددة من شخصياتهم عن طريق التعليم والتدريب والتهذيب.

وصور أسامة بن منقذ، في كتابه من خلال نظرة ذاتيّة محضة مرحلة حضاريّة هامّة للأمة الإسلامية، وهي تواجه أوّل صدام مباشرمع الحضارة الأوروبيّة، ونلمح في الكتاب معايشة حقيقيّة للفرنجة، فقد عاش أسامة وغيره من المسلمين أيّام صلح مع المحتلين، رسمت لنا ملامح علاقات إنسانيّة تتراوح بين الصداقة الحميمة، وعلاقات الجوار، والإعجاب بالآخر، واللقاء العابرفي الأسواق والحمّامات والمرافق العامّة.

واتّسمت نظرة أسامة للفرنجة في كثير من الأحيان بالموضوعيّة،فهو يشيد بشجاعة فرسانهم، ويوثّق لتفوّقهم العسكري على المسلمين، حتّى إنّه تحدّث في أحد المواضع في كتابه عن فارس منهم هزم أربعة فرسان من المسلمين.

عكس لنا أسامة في كتابه الفضاء المظلم للحرب، وهنا كانت لغته تميل إلى التوتّر، ويستخدم لغة معادية مستنفرة، ويصف الإفرنج بالبهائم، ويستنزل اللعنات عليهم.

ورصد أسامة في كتابه أحداثاً متنوّعة ترصد الحياة في تنوّعها وانفتاحها على الآخر دون النظر إلى دينه أو عرقه؛ فوثّق لعلاقات تبرز سموّ العلاقات الإنسانيّة عن المواقف التّي تدمّر التعايش بين البشر،فقد حدّثنا على لسان غلامه عن رجل نصرانيّ أنقذ قافلة للمسلمين من الهلاك حين حماها من قطّاع طرق يعرفهم، وأوصل القافلة إلى مأمنها.

وعلى الرّغم من العلاقات الّتي أقامها أسامة – لسبب أو لآخر – مع الإفرنج، فإنه كان على وعي عميق بأنّهم يشكّلون خطراً كبيراً على الإسلام: عقيدة وحضارة وإنساناً،وأنّ التعايش معهم أمراً غير ممكن، ومن ثمّ خرج من تجاربه معهم بخلاصة

مؤدّاها: "وهم – لعنهم الله– جنس ملعون لا يألفون لغير جنسهم"، ومن ثمّ فإنه يمكن القول أنّ كتاب الإعتبار ليس سيرة ذاتيّة لأسامة وحسب، بل، إنّه سيرة جمعيّة اندمجت فيها الذّات بالنحن ،فلمسنا نبض روح الأمّة في لحظة تاريخيّة حرجة،لذا جاء العنوان (الإعتبار) يحمل دلالات العظة والعبرة والتفسير.

المراجع

إبراهيم، عبد الله، (١٩٢٢)، **السردية العربيـة، بحـث فـي البنيـة السردية للمـوروث المكاني العربي**، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت.

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني الجزري، (ت ٦٣٠هـ)، (١٩٩٥)، **الكامل بالتاريخ**، تحقيق أبو الفداء عبد الله القاضي، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت.

الأصفهاني، عماد الدين بن عبدالله محمد بن محمد الكاتب(ت٥٩٧هـ)، (١٩٦٨)، **خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام**، تحقيق: شكري فيصل، المطبعة الهاشمية، دمشق.

الأصفهاني، عماد الدين بن عبدالله محمد بن محمد الكاتب، (١٩٧٩)، **سنا البرق الشامي، اختصار الفتح البنداريّ**، تحقيق: فتحية النبراوي، دار الفكر للنشر والتوزيع، القاهرة.

البستاني، بطرس، (١٩٩٥)، **قطر المحيط**، مكتبة لبنان، بيروت.

جبور، عبد النور، (١٩٩٨)، **المعجم الأدبي**، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت.

ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني،(ت ٦١٤هـ)، (١٩٦٤)، **رحلة ابن جبير**، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت.

الجزر، محمد فكري، (١٩٨٨)، **العنوان وسيموطيقيا الاتصال الأدبي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، (ت ٣٩٣هـ)، (١٩٥٢)، **الخصائص**، تحقيق محمد علي النجار، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.

ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن يوسف، (١٩٩٥)، **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، حيدر أباد، الهند.

جينيت، جيرار، (١٩٨٥)، **مدخل لجامع النص**، ترجمة: عبد الرحمن أيوب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.

حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله القسطنطيني(ت١٠٦٧هـ)، (١٩٩٢)، **كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون**، دار الكتب العلمية، بيروت.

حجازي، محمود فهمي، (١٩٩٧)، **المدخل إلى علم اللغة**، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة.

حمود، ماجدة، (٢٠١٠)، **صورة الآخر في التراث العربي**، الدار العربية للعلوم، بيروت.

الحموي، ياقوت شهاب الدين بن عبد الله البغدادي،(ت٦٢٦هـ)، (١٩٥٥)، **معجم البلدان**، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت.

ابن حميد، رضا، (١٩٩٦)، الخطاب الشعري الحديث من اللغوي إلى التشكيل البصري، **مجلة فصول**، مجلد١٥، العدد٢، ص ص٧٨-١٠٣

الخشرم، عبد الرزاق، (١٩٨٢)، **الغربة في الشعر الجاهلي**، ط١، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

ابن خلكان، أبو العباس، شمس الدين أحمد بن محمد(ت٦٨١هـ)، (١٩٨٦)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (٧٤٨هـ)، (١٩٩٧)، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العموري، ط١، دار الفكر، بيروت.

رضا، أحمد، (١٩٦٠)، **معجم متن اللغة**، دار مكتبة الحياة، بيروت.

الرقب، شفيق، (٢٠٠٩)، **شعراء شاميون في العصر الأيوبي**، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.

الزمخشري، محمود بن عمر، (١٩٨٢)، **أساس البلاغة**، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

ابن أبي سلمى، زهير، (١٩٨٠)، **الديوان**، تحقيق: فخر الدّين قباوه، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت.

أبو شامة، شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم (ت٦٦٥هـ)، (١٩٤٧)، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ط١، تحقيق: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت.

ابن شداد، بهاء الدين، (١٩٦٤)، **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، تحقيق: جمال الشيال، القاهرة.

شلّق، علي (١٩٩٧)، **النثر العربي في نماذجه المنظور العصري، النهضة والحديث**، دار العلم، بيروت.

الشيخ، خليل، (١٩٨٧)، **سيرة جبرا إبراهيم جبرا، البئر الأولى وتجلياتها في أعماله الروائية القلق وتمجيد الحياة**، رياض الريس للكتب والنشر، لندن.

ضيف، شوقي، (١٩٩٠)، **عصر الدول والإمارات: مصر ـ الشام**، القاهرة ، دار المعارف، القاهرة.

عباس، إحسان، (١٩٥٩)، **فن السيرة**، دار الثقافة، بيروت.

عباس، إحسان، (١٩٩٨)، **بلاد الشام في عهد أتابكة والأيوبيين**، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنيّة.

عباس، حسن، (١٩٨٠)، أسامة بن منقذ حياته وشعره، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية.

عبدالعزيز، شرف، (١٩٩٢)، أدب السيرة الذاتية، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر.

عبدالمحسن، بدر، (١٩٩٨)، **تطور الرواية العربية في مصر**، دار المعارف القاهرة.

ابن العديم، كمال الدين بن أحمد بن هبة الله (ت٦٦٠هـ)، (١٩٨٨)، **بغية الطلب في تاريخ حلب**، تحقيق: سهيل زكار، ط١، دار الفكر، بيروت.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: زهير عبدالمحسن، مؤسسة الرسالة، القاهرة، (د.ت).

الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، (١٩٨٠)، **القاموس المحيط**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

فيليب، لوجين، (١٩٩٤)، **السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الأدبي**، ترجمة: عمر حلمي، دار النهضة العربية، بيروت.
قاسم، سيزا، (١٩٨٦)، **أنظمة العلامات مدخل إلى السيموطيقيا**، دار الياس، بيروت.
القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب، (١٩٩٩)، **جمهرة أشعار العرب**، حققه وعلق عليه: محمد علي الهاشمي، دار القلم، دمشق.
القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبدالله(٨٢١هـ/١٤١٨م)، (١٩٨٧)، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، شرحه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.
الكتبي، محمد بن شاكر، (١٩٩٧)، عيون التواريخ، تحقيق: فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم، دار الفكر للنشر والتوزيع، القاهرة.
كولدمان، لوسيان، (١٩٨٨)، **الرواية والواقع**، ترجمة: رشيد بخدو، دار قرطبة، الدار البيضاء.
اللبدي، نزار، (٢٠٠٣)، المصطلح الفكري في كتاب الإعتبار لأسامة بن منقذ دراسة معجمية، **مجلة إربد للبحوث والدراسات**، المجلد٦، العدد١، ص ص٢٢-٥٢.
لفتة، ضياء غني، (١٩٩٥)، **البنية السردية في شعر الصعاليك**، دار الحامد، عمان، الأردن.
المبخوت، شكري، (١٩٩٢)، سيرة الغائب سيرة الآتي، دار الجنوب، تونس.
المتنبي، أحمد بن حسين الكوفي، (١٩٨٣)، **الديوان**، بشرح عبد الرحمن البرقوقي، بيروت للطباعة والنشر، بيروت.
معلوف، أمين، (١٩٨٩)، **الحروب الصليبية كما رآها العرب**، عفيف دمشقيّة، بيروت.
المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر،(ت٨٤٥هـ)، (١٩٨٤)، **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، تحقيق: جمال الدين الشيال، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر، (١٩٨٥)، **المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر، (١٩٩١)، المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
ابن منظور، جمال الدين أبي الفضل،(ت٧١١هـ)، (١٩٩٦)، **لسان العرب**، ط١، دار إحياء التراث ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت.
ابن منقذ، أبو مظفر أسامة بن مرشد،(ت ٥٤٨هـ)، (١٩٣٦)، **لباب الآداب**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، المطبعة الرحمانية، القاهرة.
ابن منقذ، أبو مظفر أسامة بن مرشد، (١٩٨٣)، **الديوان**، تحقيق: أحمد احمد بدوي وحامد عبد الحميد، منشورات بعلبكي، بيروت.
ابن منقذ، أسامة أبو مظفر بن مرشد، (١٩٨٧)، **كتاب الإعتبار**، تحقيق: وتقديم قاسم السامرائي، دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، عمان، الأردن.
أبو ناضر، موريس، (١٩٧٩)، **الألسنة والنقد الأدبي في النظرية والممارسة**، دار النهار للنشر، بيروت.
نرينهارت، دورزي، (١٩٨٢)، **تكملة المعاجم العربية**، ترجمة: محمد سليم النعيمي، دار الشؤون الثقافية، بغداد.
اليافعي، أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان،(ت٧٦٨هـ)، (١٩٩٧)، **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، وضع حواشيه: خليل المنصور، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت.
يحيى، عبد الدايم، (١٩٩٧)، **الترجمة الذاتية في الأدب الحديث**، ط٤، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.